رواية

السائر الى اللّه

محمد جبريل



السائر إلى الله

محمد جبريل

فهرست

السائر إلى اللـــــــــه

قال أبو العباس : العارف لادنيا له ، لأن دنياه لآخرته ، وآخرته لربه . وقال : الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا . وقال : الزاهد غريب فى الدنيا ، لأن الآخرة وطنه ، والعارف غريب فى الآخرة ، فإنه عند الله . وقال : معرفة الولى أصعب من معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله . ومتى تعرف مخلوقاً مثلك يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب . وإذا أراد الله أن يعرّفك بولى من أولئائه ، طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته . وقال : الولى يكون مشحوناً بالمعارف والعلوم والحقائق ، حتى إذا أعطى العبارة ، كان ذلك كالإذن من الله فى الكلام ، كلام المأذون له يخرج من فمه ، وعليه كسوة وطلاوة ، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار ، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة ، فتتقبّل من أحدهما ، وترد على الآخر .

غالب تردده وهو يقترب من الباب الحديدى الضخم . فتحت ضلفة واحدة على دنيا تشغى بالجلابيب والعمائم والأنوار المبهرة والخافتة والمذاكرة والمناقشات وروائح الطعام ..

سأل أقرب الواقفين :

ــــ أين أجد الطالب زكى تعلب ؟..

قال الطالب وهو يتأمل سيالته :

ـــــ من أية مدينة ؟..

أظهر الحيرة :

ـــــ لاأعرف .. لكنه فى السنة الثانية ..

أشار الطالب إلى حجرة صغيرة على يمين المدخل :

ـــــ إسأل عم ابراهيم القسط حارس المبنى .. إنه يعرف كل الطلبة ..

جلسا إلى دروس الشيخ يوسف بدوى . عرف سحنته ، ألفها . توالت الدروس كل خميس ، بعد صلاة العشاء . تتجه الأسئلة إلى الشيخ . يرد بكلمات مقتضبة ، أو بما يملأ مساحة الجلسة . ثم يدعوهم لتلاوة آيات القرآن ، أو الأوراد . تلتصق الأكتاف ، وإن انشغل الجميع بالمتابعة ، فلا يجاوزوا ألفة السِّحن ، إلى التحدث والمعاشرة ..

لما قدم إلى الشيخ آخر مانصحه بقراءته من كتب ، قال الشيخ فى ود :

ـــــ كتب الزاوية قليلة .. فالجأ إلى أخيك زكى تعلب..

نظر إلى حيث أشار الشيخ . شاب فى حوالى العشرين . نحيل القامة ، يرتدى جبة حال لونها ، فبدت بلا لون .

استغنى عن العمامة ، فظهر الصلع فى مقدمة رأسه . يشوب عينيه آثار رمد قديم ، ويعانى تعثراً فى خطواته . شفته السفلى المتدلية من أوسطها ، كأنها بزبوز إبريق . غادرا الجامع ـــ عقب الصلاة ـــ معاً . رحب زكى تعلب بإعارته ماعنده من الكتب ، وماعند زملائه فى المعهد الدينى . قال :

ـــ أنتظرك فى أى وقت بعد العشاء ..

هز الحارس رأسه بما يعنى عدم معرفة الاسم . أشار ، فصعد السلالم العريضة ، ذات الدرابزين الحديدى ، إلى غرف متلاصقة ، تجاورت فيها الأَسِرَّة . فى نهايتها ردهة واسعة ، تحلقت فيها مجموعات حول أدوار الشاى والمذاكرة والمناقشات ..

لحق تردده فى السؤال ، صوت من آخر الردهة :

ـــ أهلا !..

الحجرة متوسطة . على اليمين سرير حديدى صغير ، فوقه مرتبة بلا غطاء ، ومخدة ، يتوسطها آثار عرق . وعلى اليسار مرتبة ، احتلت الزاوية ، تناثر فوقها كتب ، وقطع من الخبز الجاف . بجوارها " سبت " مغطى بقطعة

قماش ملونة . خمن الراكشى أن به خبزاً أو " قرص " . فى المنتصف ترابيزة خشبية متآكلة ، عليها كتب وبرطمانات طعام وكيس ورقى ملفوف . وعلق ملابسه على الحائط : جبة وكاكولا وقفطاناً وحزاماً عريضاً . ولصق الجدار المجاور للباب ، كرسيان من الخيرزان ..

قال زكى تعلب :

ـــــ تشرب شاياً ؟..

ـــــ سكر خفيف ..

أشعل وابور الجاز ، ووضع عليه البراد . لَقَّمَهُ ثلاثة أكواب ماء ، وملعقتين من الشاى ..

قال الراكشى :

ـــــ نحن اثنان فقط ..

قال زكى تعلب :

ـــــ والفاقد ؟..

* * *

قاده زكى تعلب إلى الحياة داخل المعهد : البوابة الضخمة ـــــ طالما مر من أمامها ـــــ تخفى عالماً فسيحاً من المشايخ الصغار ، وتلاوة القرآن ، والدروس فى علوم

الصرف والنحو والمعانى والتوحيد والتفسير والحديث والفقه ، ورواتب الطعام اليومية : الفول النابت بعد صلاة الفجر ، الفتة باللحم فى الغداء . ربما أضيف إليها أنواع أخرى من الخضر والفاكهة ، وأكواب الشاى ، وفناجين القهوة ، وأطباق الحلوى ، والنقل ..

قال زكى تعلب لنظراته المتسائلة :

ـــ المعهد يحيا على إيراد العقارات الموقوفة من تجار وأثرياء ..

تسبح فى المكان أصوات قرقعة الأوانى فى المطابخ ، واندلاق الماء من الحنفيات ، والنداءات ، والقراءات ، والدردشات الصاخبة ، والهامسة ، حتى يؤذن للفجر . يبتسم لتزاحم الطلبة على باب دورة المياه ..

تعددت زياراته للمعهد ، ولقاءاته بزكى تعلب . ينصت إلى تلاوة الطلبة لسور القرآن ، فرادى فى ليالى الأسبوع ، ويشاركهم قراءاتها فى ليلة الجمعة . عرفه زكى تعلب بآخرين ، صاروا ـــ فيما بعد ـــ أصدقاءه . أذهله أنهم لم يكونوا جميعاً من المؤمنين بما يدرسون . لاحظ زكى تعلب

حيرته فيما يثيره الطلبة من قضايا الدين والسياسة ، ومن السخط والرفض . قال فى لهجة مشفقة :

ـــ أنت الآن فى مرحلة التزود والمعرفة .. فاكتف بالإنصات والاستيعاب ..

وقال له بما ذكره بالشيخ يوسف بدوى :

ـــ الترقى فى العلوم والمعارف لانهاية له ..

واحتضنه بنظرة دافئة :

ـــ ربما استغنى المرء عن هذا العلم أو ذاك . أما التصوف ، فهو العلم الذى لايستغنى عنه أحد أبداً ..

ثم فى صوت مبطن بالود :

ـــ العلوم ناقصة أو ساقطة ، مالم يكملها التصوف ويحسنها ..

وقال له وهو يدفع إليه بمجلد هائل الحجم :

ـــ لاتصوف إلاّ بفقه .. فلن تعرف أحكام الله سبحانه إلاّ منه ..

استطرد موضحاً :

ـــــ هذه هى الحكم العطائية . قال عنها شيخنا مولاى ابن عربى رضى الله عنه : إنها كادت أن تكون وحياً .. ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن ، لجازت بكلامها !..

قال على الراكشى :

ـــــ قرأتها .. استعرتها من المكتبة الحجازية ..

قال زكى تعلب :

ـــــ إنها تحتاج إلى ماهو أكثر من قراءة الاستعارة . اقرأ كل يوم بضع فقرات .. وتأمل المعانى ..

لاحظ زكى تعلب تأمله المشفق للحجرة . قال :

ـــــ إنى أفيد من حفظ القرآن بتلاوته فى البيوت ..

رفت على شفتيه ابتسامة :

ـــــ وهل تجيد الأداء ؟

ركب الاعتذار صوته :

ـــــ أقلد ماستطعت مصطفى اسماعيل أو الشعشاعى ..

أردف بالنبرة المعتذرة :

ـــــ هذه مهنة مؤقتة . أمامى ـــــ بعد التخرج ـــــ إمامة المساجد أو التدريس أو القضاء الشرعى ..

حدثه زكى تعلب عن بلدته الدلنجات ، التابعة لمديرية البحيرة . تلقى تعليمه الأولىّ فى دمنهور . ثم انتقل إلى المعهد الدينى بالورديان والمسافرخانة . اعتمد على نفسه منذ استقر فى الاسكندرية . لايتردد على الدلنجات إلاّ يوماً أو يومين ، فى الإجازة الصيفية ، وفى الأعياد ..

مع أنه أكبر من تعلب بسنوات كثيرة ، فإنه كان يتعامل معه كأستاذ ، يفيد من قراءاته وملاحظاته وتوجيهاته . يكتفى بتوجيه الأسئلة ، ويعطى انتباهه لكل عبارة ..

انقطع للتهجد ، وذكر الله ، وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن ، والاطلاع على مايقدمه له الشيخ يوسف بدوى ــــ ثم زكى تعلب ، فيما بعد ــــ من كتب التصوف والعلوم الدينية ، والتأمل فى ملكوت الله . اختار المجاهدة ، ورياضة النفس ، ومراقبتها ، ومخالفتها ، سعياً للخلاص والنجاة والوصول . عانى قلة الزاد ، وطول السفر ، وشدّة الأهوال ، وعظم العقوبات . ربما مضى عليه الليل وهو يقرأ الورد الذى اختاره . لاتدخل عليه زوجته ولا الأولاد . ينعزل تماماً عن كل ماحوله . يتنبه لأهازيج السحر : تسابيح المنشدين والمؤذنين قبل أذان الفجر . يذهب للصلاة

بوضوء العشاء . تعلم آداب الذكر ، مايسبقه ويصحبه ويلحقه . التوبة ، والتطهر ، والصلاة ، وطريقة الجلوس ، والجو المحيط ، وحالة القلب والخاطر ، واختيار صيغة الذكر ، والتهيؤ لاستقبال الوارد ، مع العزوف عنه ، وشرب الماء البارد ، وطريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والناحية التى يتجه إليها برأسه ، وأعلى جسمه ، عند نطق كل كلمة . اعتاد مشاهد الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم ونزع الثياب والزحام ..

سأل زكى تعلب :

ـــ لماذا تتعدد الطرق الصوفية ؟..

قال تعلب :

ـــ كلهم من رسول الله ملتمس ..

خالط نبرته تشكك :

ـــ ولماذا لانكتفى بالسنة ؟..

استطرد فى نبرته المتشككة :

ـــ تفرع الطرق يطرح الخلاف ..

قال زكى تعلب :

ـــ اقرأ أولاً .. ثم اظهر اختيارك ..

وسأل ، ليلة :

ــــ هل يغنى الورد عن قراءة القرآن ؟..

قال زكى تعلب :

ــــ هذه اجتهادات الغلاة ..

ثم بلهجة باترة :

ــــ لسنا منهم !..

وفاجأه الشيخ يوسف بدوى ــــ ذات مساء ــــ بالقول:

ــــ أنت الآن على عتبة مقام المريد .. وهو مقام المجاهدات والمكابدات ، وتحمل المشاق ، وتجرع المرارات ، ومجانبة الحظوظ ..

سار فى طريقه . تدفعه ، وتحدو به ، الأشواق والمجاهدات ..

أزمع أن يطهِّر نفسه من حب الدنيا ، ومن الإقبال على الخلق . قطع المعاملة مع العباد . سلك طرق العبادة والزهد..

لازم الخلوة ، وداوم الصلاة والذكر والصوم والعبادة . لون طاعته لله . إذا ملَّ من الصلاة ، انتقل إلى الذكر . وإذا

مل من الذكر ، قرأ السير والأحزاب والأوراد . ألف رياضات النسك والصلاة والصوم والسهر والمفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة والمحبة والشوق والأنس والرجاء والتوكل والقرب وموارد القلوب . وتفيض التجليات . تأتى وتذهب . تشف الروح ، وتتخفف من قيود البدن . تموت الشهوات . تتصل الروح بالملأ الأعلى ، تتكشف لها الأنوار الربانية . يسمع ــــ حيث يذهب ويجئ ــــ أكثر من ثلاثة عشر ألف نبى ورسول . يعانون ويقاسون التجربة . يتحدثون عن الوحى والتنزيل . تتناغم أصواتهم مع أصوات الألوف من أولياء الله والصالحين والتابعين ، وأصوات الملايين من طالبى البرء والشفاعة والستر ..

قال الشيخ يوسف بدوى :

ــــ هذا علم لايؤخذ من الأوراق .. إنما يؤخذ من أهل الأذواق ..

قال على الراكشى :

ــــ أنت الذى دفعتنى إلى القراءة ..

قال الشيخ كأنه لم يسمعه :

ـــــ أَتْمَمْتَ الجانب النظرى للبداية ، ويبقى عليك استكمال الدائرة !..

استطرد موضحاً :

ـــــ آن أوان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن ..

وقال له ، ذات مساء سبق فيه الآخرين إلى شقة الشيخ:

ـــــ المريد لايصل إلى شئ من مبتغاه ، دون شيخ !..

المريد ! ..

هل أوشك على تخطى العتبة إلى دنيا الفيوضات الربانية ؟..

وقال يوسف بدوى :

ـــــ لابد للإنسان من شيخ يرشده .. ومن لاشيخ له ، فالشيطان شيخه !..

كان إذا جلس إلى الشيخ يوسف بدوى ، طوى علمه ورؤية نفسه . هو عار يطلب الكساء من فم الشيخ ونصائحه . يمتثل للأوامر ، ويجتنب النواهى ، ويجتهد فى الابتعاد عن المعاصى . لايفعل ماتوبخه عليه نفسه حين يأتى الليل ، أو

يقبل الصباح . يحرص أن يكون غده أفضل من اليوم الفائت ، وعلى المحبة التى تدفع إلى النوافل والمستحبات ..

وقال له الشيخ ، وهما يغادران أبو العباس :

ــــ أنت فى حاجة إلى واصل موصّل ..

قال فى حيرته :

ــــ كيف ؟..

قال الشيخ :

ــــ ــــ التوبة أولاً .. وهى لاتكون إلاّ على يد شيخك ..

فى محاولة للنفاذ من الحيرة :

ــــ إختر لى شيخاً ..

قال الشيخ :

ــــ أنت الذى تختار ..

فى نبرة متوسلة :

ــــ فلتكن شيخى !..

قال الشيخ :

ــــ اعرف أولاً ماينبغى معرفته من الإجراءات التى يجب أن ترقى عن طريقها ..

ثم بلهجة تقطر محبة :

ــــ كلما كانت البداية أحكم ، كانت النهاية أتم !..

وهز أصبعه فى الهواء :

ــــ حذار من فساد الابتداء !..

* * *

متى يأذن الله ، فيصبح من أهل الحجاب ، أهل الدليل والبرهان ؟ يخلص قلبه لله ، فيضئ طريقه بأنوار المعارف . يهبه علومه وأسراره . ينكشف الغطاء ، ويفتح الباب ، ويرفع الحجاب ، ويكشف نور الشريعة ظلمة البطالة والتقصير ، ويظهر نور المجاهدة ، وتشرق شموس العرفان ، وتنادى هواتف الحقيقة ، وتتألق جواهر العلم المكتوب ، ويتسع ضيّق الأكوان ، وتحصل أنوار المواجهة ، وتصير الروح سراً من أسرار الله ، ويقبل القلب على معرفة مولاه .. تطوى له الآفاق . يصبح من أهل الخطوة ، يطير فى الهواء ، يمشى على الماء ، مثل الشاذلى وأبو العباس . المراحل ــــ إن أحسن ارتقاءها ــــ تنتهى به إلى حيث يريد . يخلص فى المقامات والأحوال ، فيصبح فى مقدوره إتيان الخوارق والكرامات . يكشف عالم الغيب المحجب ،

ومافى القلوب ، ويستشرف الآتى وتوقعات المستقبل . يدرك أسرار السمك والطير والحيوان والحشرات والنبات . يتحدث إليها ، ويطوعها فى أشكال مختلفة . يتصرف فى الكون بالهمة . يدخل على الحاج قنديل فى الحلقة ، أو فى جلسة العصر أمام دكان محمد صبرة ، أو فى درس إمام أبو العباس . يملى عليه شروطه ، فلا يقوى على الاحتجاج أو الرفض . يتلو أدعية ، فيحيل الظالم جماداً فى مكانه . يحيل التراب ذهباً . يتزوج الحور العين . يقطف ثمار الجنة وهو على الأرض ..

ابتسم لرؤية الحاج قنديل وقدماه تتأرجحان فوق الصراط ، قبل أن يهوى إلى جهنم ، وجز أسنانه لتأوهات الرجل ، وهو يحاول اتقاء لسعات الكرابيج المشتعلة فى أيدى الجان . وقال الحاج فى تذلل : إن لم تعف عنى ، فالخلود فى النار مصيرى . وركب حصاناً فى جلوة المولد يفوق جماله حصان التميمى ، يحيط به المريدون والأتباع وأهل الطريقة ، يحملون الأعلام ، ويدقون البازات ، ويبتلعون النار ، ويغرسون الأسياخ فى الخدود ، وأعان الصيادين على ركوب البحر فى عز العاصفة ، وأحنى الشيخ طه مسعود

رأسه ـــــ تأدباً ـــــ فى مجلسه ، وأذنت له رئيسة الديوان بالحضور فى مجلسها ، جنباً إلى جنب ، مع الرفاعى والبدوى والشافعى والجيلى . وانخرط صيادو الحلقة فى حضرة ، يتهدجون بالدعوة له ، والشفاعة ، والمدد ، وتضوع البخور ، وتعالت الزغاريد ، وترنمت الأصوات بحب النبى ، وباحت الطلاسم بألغازها ، وتألقت الفيوضات بما يصعب تخيّله ..

الحال يسبق المقـــام

أنكر ابن عطاء الله السكندرى ـــ فى مقتبل شبابه ـــ على التصوف ورجاله ، وذهب إلى أبو العباس المرسى لينظر ماذا يقول . وجده يتكلم فى الأنفاس ودرجات السالكين إلى الله ، ومدى معرفتهم به ـــ سبحانه ـــ وقربهم وتقربهم إليه ، فمازال يتحدث ويتحدث عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ومقامات الشريعة والحقيقة والتحقق . قال ابن عطاء الله : .. إلى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ، فأذهب الله ماكان عندى من إنكار واعتراض . ولزم ابن عطاء الله ـــ فيما بعد ـــ أبو العباس ، وصار من مريديه ..

جلس قبالة الشيخ . أسند ركبتيه إلى الأرض . قرأ الشيخ الفاتحة ثلاث مرات . قرأها بعده . قرأ الشيخ : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه " ..

وقال الشيخ :

ـــ استغفر الله ..

قال على الراكشى :

ـــــ أستغفر الله العظيم ، الذى لاإله إلاّ هو الحى القيوم ، وأتوب إليه . تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، ونهيت نفسى عما نهى الله ، ورضيتك شيخاً لى ، ومرشداً لطريقة الشاذلى ..

قال الشيخ يوسف بدوى :

ـــــ أنت الآن تقف على باب الأبواب ..

وتأمل مالايراه سواه ، فى الفراغ أمامه :

ـــــ التوبة هى أول مايدخل به العبد حضرات القرب من جناب الرب !..

التوبة هى الإعتراف ، والندم ، والإقلاع ، والتقوى ، والاستقامة ، والزهد ، والورع ، والخوف ، والرجاء ، والرضا ، والتسليم ، والإخلاص ، والصدق ، والطمأنينة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، والمعرفة ..

قال الشيخ :

ـــــ أقمتك مريداً بهذه الطريقة العلية .. وعلى هذا العهد المبارك ..

أضاف فى ترفق :

ـــــ قم مريداً فى هذه الطريقة !..

* * *

قال الشيخ يوسف بدوى :

ـــ قبلتك لأوصلك إلى طريق الله بقدر ماتعرف ، وإنى لن أبخل عليك بقدر ماعرفته . وقال : من شروط التلمذة أن يختار المريد الفقر على الغنى ، والذل على العز ، والله على غير الله . وقال : لاشجرة بدون غارس . قد تورق ، لكنها لاتثمر . وقال : اسلك الطريق على هدى ماتلقاه عنى من إشارات وإرشادات . وقال : المريد يجب أن يكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى غاسله ، يقلبه كيف شاء ..

لاحظ ارتجاف عينيه . خالط صوته إشفاق :

ـــ لاأريد لعلمك أن يقتصر على الشريعة ، فتصبح من العامة ، ولاأحب لنفسى أن أصبح من علماء الرسوم ..

وقال فى صوته المشفق :

ـــ أملى أن تصل إلى المقام الذى أتمنى من الله أن أصله يوماً ..

قال على الراكشى :

ـــ ماهو ؟

قال يوسف بدوى :

ـــــ مقام المحبة .. هو أعظم المقامات .. ليس بعده مقام آخر ..

حذره من ضعف النفس . يشاهد اللوامع بالحواس الظاهرة . تتراءى له أنوار كأنوار الشمس والقمر والشهب ، فتضئ ماحوله . تبهر أهل البدايات ، فيسيئون الرؤية والفهم والتصور . تجتذبهم ، فيتبدى السراب واحة يتصور فيها الضال غاية تعبه ..

ألزم نفسه حسن الاعتقاد فى الشيخ ، الإيمان بصدق ولايته . أوقد فى قلبه مصابيح الهوى . أجاد تربيته ، والإشارة إليه بمستلزمات السلوك ، ومقتضيات الوصول إلى قرب الخالق . آن الأوان كى يجاوز العبادة الظاهرة من صلاة وصوم وطهارة ، إلى العبادة الخفية : الخوف والرجاء والزهد والصبر والورع والرضا والتسليم ..

أوصاه الشيخ بألاّ يجادل . الجدل يفضى إلى المماراة ، وتغليظ القلب ، والانتصار للنفس على حساب الحق . يصرفه عن مغالبة الشهوات ، والسمو إلى عالم الصفاء . يشوش عليه ، فلا يدخل العالم الذى ينتظره ، عالم الصادقين ، القانتين ، الخاشعين ، السائحين ، الموقنين ، المخلصين ،

المحسنين ، الخائفين ، العابدين ، المتوكلين ، المتقين ، الأبرار ، المقربين ، المصطفين ، الأخيار ..

وقال له الشيخ :

ـــ حفظ العهد يعنى ألاّ تفقد حيث ماأُمرت ، ولاتوجد حيث مانهيت !..

أقبل القلب على بهجة الأسرار . لمعات نورانية ، تضئ فى سماء حياته ، ثم ماتلبث أن تزول ، وتنطفئ ، كأنها لم تكن . تعود ثانية كما كانت . بلا مقدمات ، ولامحاولة منه لاجتلابها . سماها الشيخ يوسف بدوى طرائق الأحوال . لم يفهم المعنى على نحو محدد ، وإن اعتاد التماعها بين لحظات وأخرى ..

قال الشيخ :

ـــ لابد أن تمر بطريق طويل قبل أن تصبح سالكاً . لابد من صحوة وقيادة مرشد كى تصل إلى نهاية الطريق ..

قضى أيامه فى تأمل وصلاة ، وتلاوة سور القرآن الكريم . يادوب يبيع شروة . يأخذها من محمد كسبة . يمضى بعدها إلى أبو العباس ، أو إلى البيت . الصلاة ، والصوم ، والتسابيح ، والقراءات ، قبل كل صلاة وبعدها .

مايستحب من الذكر والدعاء ، أوراد الليل والنهار ، محاسبة النفس ، تعلم المقامات ، والغفلة ، وعلوم الباطن ..

أيقن أنه يحاول الدخول إلى الحضرة الإلهية من باب القرب . اعتاد تناوب المشاعر فى داخله مابين الحزن والوجد والفرح والشوق والرضا والندم . يتبدل من حالة إلى أخرى ، بتبدل المقام وزواله ، باستمراره ودوامه ..

صارح الشيخ بما فى نفسه ، فطمأنه :

ـــ المريد يترقى من مقام إلى آخر ، حتى ينتهى إلى التوحيد والمعرفة .. وهى غاية السعادة ..

ثم وهو يتأهب للصلاة :

ـــ المقامات درجات فى الصعود إلى الغاية العليا ..

حدثه فى حل الرموز ، فهو لن يصل إلى منازل القربى ، حتى يجاوز ست عقبات : يفطم الجوارح عن المخالفات الشرعية . يفطم النفس عن المألوفات العادية ، وعن الكدورات الطبيعية . يفطم القلب عن الرعونات البشرية . يفطم الروح عن البخورات الحسية . يفطم العقل عن الخيالات ..

وقال يوسف بدوى :

ـــــ المقامات أمامك كثيرة .. فأنت تبدأ بالتوبة ، ثم الخوف ، فالرجاء ، فالصالحين ، فالمريدين ، فالمطيعين ، فالمحبين ، فالمشتاقين ، فالأولياء ، فالمقربين ..

وقال :

ـــــ اخرج معى .. ولاخوف عليك !..

بدأ تمارين غيبية ، كتلك التى يمارسها الدراويش ، للوصول إلى حالة الإشراق ، والحصول على الكرامات التى تمنحه قوى خارقة ..

* * *

قال له الشيخ يوسف بدوى :

ـــــ مادمت قد صدقت بهذا العلم ، فأنت من الخاصة . فإذا فهمته ، فأنت من خاصة الخاصة . أما إذا عبرت عنه ، وتكلمت فيه ، فأنت النجم الذى لايدرك ، والبحر الذى لاينزف ..

هل آن أوان ذلك ؟..

هل يصبح حرّ نفسه ، ويتخلص من تسلط الحاج قنديل ، ومن الأيام الصعبة ؟!..

الإمام يفض الحفـــــــــل

بدا الرجل ـــ بقامته القصيرة ، وخطواته المهرولة ـــ فى غير الصورة التى ألفوه فيها داخل المرسى أبو العباس . يدس قدميه تحت فخذيه ، فينتهى جسده عند الركبتين . المصلون أمامه ـــ فى نصف دائرة ـــ ينصتون إلى دروس المغرب ، يسألون ، يناقشون ، يستوضحون ماغمض من الشريعة والفقه : الطهارة والزكاة والسنة والفرض وأحكام الطلاق والسهو عن الصلاة والصوم فى غير رمضان ..

لم يفطن المعلم عباس الخوالقة إلى اتجاهه ناحية السرادق ، المزدان بالأنوار والرايات ، فى نهاية شارع السيالة ، إلاّ حين علا صوت محمود عباس الخوالقة :

ـــ نورت المكان .. تفضل يامولانا !

عرفه من ظهره : العمامة التى طوقت الرأس ، يتهدل من تحتها شعره ، اختلط فيه السواد بالبياض ، والجبة الرمادية لا يكاد يغيرها ..

كأنما الرجل يحيا فى الجامع . عرف عنه عزوفه عن الزحام والمجالس . لايغادر بيته إلاّ للجامع . لايجول فى الميدان ، أو فى الشوارع والحوارى المحيطة . لايجالس الناس ، أو يتردد على البيوت ، أو ينزل الأسواق . صلته بالمصلّين سماعهم له فى صلاة الجمعة ، وتمام الصفوف فى الصلوات الخمس ، والدروس التى تعقب صلاة المغرب . يثقون أن له بيتاً وأسرة ، وأنه يغادر الجامع ويأتى إليه ، فلا يلحظ حتى دائمو التردد على الجامع ، حتى أصحاب الدكاكين القريبة ، متىيذهب ويجئ ، وإن روى الحاج محمد صبرة أن الشيخ طه مسعود إذا خلا إلى أصدقاء ، صار من ألين الناس جانباً ، وأشدهم مودة ، وإقبالاً على الآخرين . كأنه إنسان آخر غير الذى يخشى الناس صرامة مجلسه . وكان حافظاً للنكات نفس حفظه للآيات والأحاديث والفتاوى والأحكام ..

قيل إنه كان يتشدد فى محاسبة عبد النبى شعرة ، خادم الضريح ، على إيرادات النذور . يحصل عليها كلها لنفسه . يحصل كذلك على مايأتى به زوار الضريح من المدن والقرى المجاورة من شموع وأغنام وعجول . مع ذلك ، فإنه

لم يكن يرى فى الموالد مايفيد . رأيه أنها أسواق للبدع وإلهاء الناس عن أمور دينهم . وعاب على الذاكرين رفع أصواتهم فى حلقات الذكر أمام الجامع ..

الرجل ليس من أبناء بحرى ، ولامن أبناء الإسكندرية . قيل إنه من مواليد إيتاى البارود . غادر مدينته للتعلم فى المعهد الدينى الثانوى بالإسكندرية ، فاستوطن المدينة . حتى بعد أن حصل على العالمية من الأزهر . وَسّط حمادة بك ، فألحقته وزارة الأوقاف بوظيفة إمام فى مسجد طاهر بك بشارع الحجارى . ثم عمل مدرساً بالمعهد الدينى ، قبل أن تتيح له وساطة حمادة بك وظيفة الإمام بالمرسى أبو العباس..

لايزور ولايزار . شقته الواسعة ، فى البيت المطل على شارع سوق السمك القديم ، لم يتعرف أحد إلى أهلها ، ولاماذا تحوى . حتى الزبال وباعة الخبز واللبن ومحصل الكهرباء ، يستقبلهم الشيخ بنفسه من وراء الباب الموارب ، وإن روى البعض أنه شاهد أكبر أبناء الشيخ ـــ طالب فى التوجيهية ـــ يصحب أمه فى عربة حانطور ، مضت بهما

إلى بيت قديم فى نهاية السيالة ، قبالة بيت المعلم عباس الخوالقة . وعادت العربة قبل أن يحل الظلام ..

أكدت رواية ثانية ، أن أشقاء الزوجة هم سكان البيت الذى أمضت فيه ـــ وأكبر أبنائها ــ نهاراً بأكمله . لم يأذن لها الشيخ بزيارتهم منذ الزواج ، إلاّ حين أبلغه ـــ فى الجامع ـــ رسول ، باشتداد المرض على أمها . نفى عباس الخوالقة الواقعة من أساسها . قال إن سكان البيت المقابل زوجان من أصل تركى ، وأبناؤهما الثلاثة . وزوج الإمام فلاحة من مدينته ، إيتاى البارود ..

كان أولاده الخمسة يذهبون إلى مدارسهم ويعودون ، فلا يغادرون البيت ، ولايخالطون الأولاد ، أو حتى يشترون احتياجات البيت . عبد النبى شعرة يشترى للبيت كل احتياجاته . أما البنتان اللتان اكتفى الأب بتعليمهما الابتدائى ، فقد ألزمهما البيت . رفض تزويجهما بمقدمات . من يريد الزواج يدفع المهر ، يعقد قرانه ، فلا يرى زوجه إلاّ ليلة الزفاف . استهوى تشدده الحاج قنديل ، فوضع الشرط نفسه أمام المتقدمين لخطبة ابنته ..

وافقت أسر على شرط الشيخ ، وإن أتبعت موافقتها بطلب الإذن لأهل الشاب بمشاهدة العروس ، فرفض الشيخ ..

ـــ لن يكون بين الزوار رجال ..

ـــ ولو !

ـــ رؤية العروس قبل الزواج أقرها الإسلام ..

قال فى لهجة باترة :

ـــ ليس لدى بنات للزواج !..

* * *

قبل أن يقضى على تردده : هل ينادى عليه ، أو يحاول اللحاق به .. كان زحام الصبية ، أمام السرادق ، قد أفسح له الطريق . ثم التصقت ـــ من جديد ـــ حدوة الزحام ..

بعد أن أَمّ المصلين فى صلاة الظهر ، التفت ـــ بتلقائية ـــ وراءه ، يصافح ، ويسأل ، ويجيب . يخلى يده للصغار يقبلونها ، يبدى ملاحظات لخدم الجامع ، يتأمل كسوة الضريح ، يأمر بلم الكتب المتناثرة تحت الأعمدة ، وصرف المستلقين بلا صلاة ..

لاحظ وجود جابر برغوت خادم جامع ياقوت العرش بين المصلّين . شغله السؤال عن بواعث تركه العمل فى الجامع . قال من بعيد :

ـــ لماذا تركت مسجدك ؟..

اقترب الرجل ، بحيث يصل صوته الهامس :

ـــ أريدك فى أمر مهم ..

تردد لحظات . ثم اشار إلى حجرته ، على يسار الباب الرئيسى للجامع :

ـــ اسبقنى إلى هناك ..

تداخلت كلمات الرجل ، بترقبه المنشغل . أتته ـــ فى الصباح ـــ رسالة وزارة الأوقاف ، بالموعد الذى حدده الملك فاروق لزيارة الجامع . قال عبد الرحمن الصاوى : مولانا يحرص على أداء صلاة الجمعة فى جوامع مختلفة فى مدن مصر ، لتتسع دائرة شهرته بالصلاح فى نفوس الناس . يفد ـــ قبل الموعد بأيام ـــ وزراء ومسئولون . تلغى الأجازات لنظافة الجامع . تراعى إجراءات الأمن فى الزوايا والأركان وخلف المنبر والأسطح والمئذنة والحجرات المغلقة . يخلى ميدان المساجد ، والدحديرة الخلفية ، وتغلق النوافذ

والشرفات المطلة على الجامع . يقف العساكر بالعصى والبنادق على النواصى ، وفوق الأسطح ، وينتشر المخبرون بجلابيبهم وبلاطيهم الميرى . هات من الآخر ياجابر . الأبوان لايعرفان ماحدث ، لكن الجارة التى روت لى ، أكدت أن أم محمود أرضعت الولد والبنت . زيارة الملك للجامع توجب الظهور أمامه بأفضل صورة . ومادخلى ؟.. لماذا لم ترو الحكاية لإمامك ؟. المعلم الخوالقة من مريديك وصديقك . اللهم احفظ البلاد ومليكها المفدى . تردد الجموع : آمين . يهش ـــ عقب الصلاة ـــ ويبش . يأمر بخلعة : جبة كشمير ومكافأة مالية . ذلك ماحدث فى الزيارتين السابقتين . قيل إنه أضاف إلى هبة الشيخ عبد الحفيظ إمام جامع على تمراز صرة مال . وقيل إنه أهدى إلى الشيخ شحاتة الوكيل إمام البوصيرى ألف جنيه من الذهب ، وساعة ذهبية ، وشالاً من الكشمير . أعمدة الضريح بهت لونها ، والحصير تآكلت أطرافه . تفرش الوزارة مقدمة الجامع بالسجاد . ماذا يكون الأمر ، لو أن الملك حلا له التمشى فى صحن الجامع ؟.. راقته النقوش والتهاويل والمقرنصات

والأعمدة الرخامية ؟.. ليتها رضعة أو اثنتين ، لكنها أرضعته لشهر كامل ..

كان الحفل ــ حتى الليلة السابقة ــ مهدداً بالإلغاء . طلب العريس أن يكون الزفاف أفرنجياً . يدخل على عروسه ، يغلقان بيتهما عليهما ، يفض بكارتها فى اللحظة التى يريدها . ربما فى الليلة نفسها أو بعد يوم أو يومين . أصرت أم محمود أن يكون الزفاف بلدياً . يدخل الشاب على البنت أمام نساء الأسرتين . يلجأ إلى اصبعه ، يلفه فى المنديل الأبيض . إن خاف أو تردد ، قامت البلانة بإتمام المهمة . شرف البنت يخرق عين من يفكر فى النيل من سمعتها . تلعلع الزغاريد ، ويطوف الموكب أمام البيوت المتساندة ، المتصنتة : قولوا لابوها ان كان جعان يتعشى .. بنت الأكابر شرفتنا الليلة ..

طال الأخذ والرد . علت الآراء والتعقيبات . همست الأفواه بكلمة الطلاق ، وإن لم تعلنها ..

وافق المعلم عباس الخوالقة فى النهاية ـــ بكلمات حاسمة ـــ على ماأراده الشاب . هذا شأنه مع زوجته ، فاتركوهما ..

لطمت أم محمود على صدرها :

ـــــ وشرف البنت ؟..

قال فى هدوئه الحاسم :

ـــــ الأرياف يصرون على ذلك .. أما نحن ، فمجتمع مدينة ..

وهى تسبل عينيها :

ـــــ خواجات يعنى ..

خالط صوته غضب :

ـــــ تهذرين ؟!..

مصمصت :

ـــــ من يملك ـــــ بعد ذلك ـــــ أن يدوس له على طرف ؟!..

طقت عيناه بالشرر :

ـــــ جوازة أم خناقة ؟!..

قال الشيخ طه مسعود :

ـــــ كلامك خطير ..

استطرد وهو يعطى انتباهه :

ـــــ قله فى عبارات محددة ..

قال جابر برغوت :

ــــ كما قلت لك يامولانا .. مهجة بنت عباس الخوالقة .. يعقدون قرانها مساء غد على أخيها فى الرضاعة ..

أهمل الشيخ ترتيبات الزيارة . سلامة الدين تسبق ماعداها . هل ضل الناس ، فانشغلوا بالدنيا عن الدين ؟!..

حدج الرجل بنظرة متوجسة :

ــــ متأكد من روايتك ؟..

وهو يضغط على الكلمات :

ــــ مثلما أتأكد أنى جالس فى حضرتك ..

هل اقترب يوم الهول ، فعلى الناس أن يرقبوا الدابة والمسيخ الدجال وظهور الشمس فى المغرب ؟.. المعلم عباس الخوالقة من أفضل جلسائه ، فهل أغواه حب المال ، فنسى الدين ، أو أنه لايعلم فعلاً ؟! ..

شقت له الأجساد المتراصة طريقاً بينها ، حتى انتهى إلى باب البيت فى نهاية السرادق ..

صعد يسبقه الغضب . عبس للفرحة التى ملأت الوجوه . استقبلته الزغاريد وساعدا الخوالقة المفتوحان فى أعلى السلم :

ـــــ لقدومكم فرحة أعز من فرحة الزفاف !..

كان عقد القران قد أوشك على نهايته . تناثر الملح على المدعوين ، ترافقه الكلمات المنغمة : مالحة فى عين اللى مايصلى على النبى !..

استأذن خميس شعبان أن يرفق بالاحتفال حفلاً بختان طفلته ، توفيراً للنفقات . رفض المعلم . أصرّ أن يقتصر على عقد القران . نالت الفتاة من قرص البنات ، وخطت أم العروس برجليها فوق العروسين ، وأفسحت المرأة بين ساقيها ، فزحف العروسان من تحتها ، ووضعت قطعة سكر تحت لسان ابنتها ، فيكون كلامها مع زوجها حلواً كالسكر . ثم وضعتها فى كوب ماء ، إرتشفه الشاب ليدوم الوفاق ، وفتحت مقصاً لمنع العين ، وأعدت تحويطة ، ورشت الملح والحمص والأرز والخميرة ، تدخل فى الأعين الشريرة ، وتبعد الحسد ، وإن قيل إن الدبلة سقطت من يد الفتاة أثناء كتابة العقد ، فتشاءمت أمها من ألا يتم الزواج ..

دخل فى الموضوع بلا مقدمات . سأل ، وأنكر ، وشرح ، وأفاض . إتجه إلى عباس الخوالقة بقسمات مشتعلة :

ـــ هذا الزواج باطل !..

التف الرجال ـــ الذين أخلوا مقاعدهم ـــ بالوجوم . بدوا متحيرين ، لايقوون على التدخل برأى . حتى المعلم عباس الخوالقة اكتفى بتحريك عينيه فى غير اتجاه ، وهو يعض سبابته ..

قال الخوالقة ليهدئه :

ـــ اشرب القهوة أولا ..

وهو يدفع يده فى الفراغ :

ـــ يهمنى أن أقول ماعندى ..

اغتصب الخوالقة ابتسامة ، وقال فى محايلة :

ـــ سأنصت جيداً .. عيب الاَّ تشرب القهوة أولاً ..

قذف بالقهوة فى حلقه دفعة واحدة . ثم وهو يمسح شفتيه بظهر يده :

ـــ أخوان فى الرضاعة .. كيف يتزوجان ؟!

تناهى صوت هامس بالقرب من النافذة المطلة على الشارع الخلفى :

ـــ نسأل أم محمود .. ربما الرواية كاذبة ..

قال الإمام :

ـــــ قد تكذب لإتمام الزواج ..

أسعف الخوالقة صوته :

ـــــ لن تخالف دينها يامولانا !..

دون أن يجاوز الهدوء :

ـــــ ناقصات عقل ودين !..

واتت الجرأة أم محمود :

ـــــ من حقنا أن نعرف المرأة المرضع ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ أو نسأل صاحب الرواية ..

قال الإمام فى نبرة باترة :

ـــــ الرواية صادقة .. وإذا تم هذا الزواج فهو باطل..

طاف بعينين يغشّاهما الغضب على الرجال الذين حاكوا المكان فى صمته . ثم هبط السلالم ، وقطع السرادق إلى نهايته ، ومضى فى اتجاه الميدان ..

كانت الزغاريد قد سكتت ، والفرقة الموسيقية أهملت آلاتها ، وطلبت الأسطى مواهب شالاً ، تضعه على كتفيها ..

ظلت اللمبات الملونة ـــــ وحدها ـــــ مضاءة ..

المـــــأزق

أطلقت شهقة لغياب الحقيبة من ركن الحجرة الرمادية . كانت تدس فيها ماتحصل عليه من البيوت ، أو مايعن لها شراؤه من السوق : مفرش ، ملاءة ، طقم ملاعق أو سكاكين ، حلل ، أطباق ..

لم تكن تعد نفسها للزواج ، ولاتصورت أنه سيتقدم لها من يعرض عليها الحياة كزوجة ، لكنها حرصت أن تضيف إلى مابداخل الحقيبة . لم تناقش نفسها : لماذا ؟ ولاإلى متى ؟. كلما حملت جديداً ، أعادت فتحها . قلّبت فيما تحويه ، تأملته ، ودققت فيه . ربما فردته على أرض الحجرة ، تطيل النظر إليه ، تسرح فى اللاشئ ، تلملم الأشياء داخل الحقيبة ، تسندها إلى زاوية الحجرة ، وتمضى ..

خلا الركن من الحقيبة . شكت أنها ربما نقلتها إلى حجرة أخرى ، ونسيت ..

قلبت المكان . فص ملح وذاب . بظاهر كفيها ، مسحت الدموع التى انبثقت ـــ فى صمت ـــ من عينيها . تساقطت على خديها وذقنها وملاعتها ..

البيت مهجور . يبدو كذلك أمام من تصحبهم إليه فى الليل ..

قال لها سيد وهو يتركها فى بداية شارع السيالة :

ـــ الأولاد يلعبون فى الشارع . ربما دخلوا ، فرأوا الحقيبة ، وأخذوها ..

اغتصبت ابتسامة لتطمينه :

ـــ إنهم يخشون البيت.. يتصورونه مسكوناً بالعفاريت ..

قال فى تنبه :

ـــ قلت إنك لم تعودى تصحبين أحداً إلى البيت ..

وشى صوتها بغضب :

ـــ تشك فيما قلت ؟!..

فوت ملاحظتها :

ـــ ربما أراد أحدهم مضايقتك ، أو إيذاءك ..

قالت :

ـــــ أنا لم أضايق أحداً ..

هتفت متذكرة :

ـــــ هل تكون المعلمة أنصاف ؟..

لما عرضت عليها المعلمة أنصاف أن تعمل فى بيتها بكوم بكير ، رفضت بلا تردد ..

اعتادت الحياة فى بحرى . يعرفها الناس ، وتعرفهم . تنصت إلى العرض ، فتقبل أو ترفض . ربما ترددت على بيت ، تعلم جيداً أنها لن تحصل فيه على قيمة مضاجعتها .. لكن الحياة فى كوم بكير ، الوقوف أمام البيوت ، أو فى داخل الغرف ، ورفع الساقين لمن يدفع ، دون أن تلتقى به من قبل ، وينصرف دون أن يعرف اسمها ، أو تعرف اسمه ، والحصول على ترخيص من الحكومة ، والتردد ـــــ كل أسبوع ـــــ على طبيب الصحة فى قسم اللبان . يلغى التصريح ، إذا ثبت أنها أصيبت بمرض جنسى ، أو يجدده . تعود بالهتاف : سالمة ياسلامة .. رحنا وجينا بالسلامة !..

لم تتصور أنها تفعل ذلك كله ، أو تحياه . بحرى بيتها ، تمشى فى شوارعه وحواريه وأزقته . لايشغلها حتى النظرات المتابعة ، أو الملاحظات المستفزة ..

رآها محمود عباس الخوالقة ، وهى ترتدى فستاناً يصل إلى ركبتيها ، مشجراً دون ملاءة . تلقفتها صيحته من أول شارع أبو وردة :

ــــ ماذا فعلت بنفسك ؟..

أخفضت رأسها تتأمل الفستان :

ــــ ماذا ؟..

قبل أطراف أصابعه :

ــــ أنت مسخرة !..

قالت محتجة :

ــــ ألست مثل الستات ؟!..

وهو يشملها بنظرة إشفاق :

ــــ وست الستات .. لكن الملاءة أليق بك ..

أدركت أنها لكى تحيا فى بحرى ، تمشى فى أزقة السيالة والأنفوشى ورأس التين ، فلابد أن ترتدى مثل نساء الحى . من ترتدى مثل النساء الغريبات ، فهى غريبة . الساكنات فى شوارع التتويج واسماعيل صبرى ورأس التين والحجارى وحسن عاصم وكورنيش الميناء الشرقية وغيرها ، معروفات بالـــتأكيد أو بالتذكر . أما هى ، فأنسية . يتعرف

إليها الرجال بالملاءة التى تغطى جسمها . تسير فى الشوارع ، فلا تلفت انتباهاً ولاتساؤلاً ..

غلبها اليأس ، فوافقت على عرض المعلمة . ليلة ، فتظل فى كوم بكير ، أو تعود إلى بحرى . تصورت أنها ستهدأ عن التنقل بين البيوت ..

ركبها ــــ فى ليال متتالية ــــ صعايدة وأفندية وبحارة وطلبة . أرهقها خلع الفستان وارتداؤه ، فظلت بقميص النوم . لاوقت للأخذ والعطاء والمؤانسة . اختلطت الملامح ، فبدت شخصية واحدة . اعتادت الضرب والقرص والخمش والشتم والملاعبة والعض والتذلل واللعاب على كتفها العارى ..

لم تكن تناقش المصاحبين لها إلى داخل الحجرة . تُسْلِم نفسها فى آلية . تنزع الملاءة والفستان . تتمدد بالقميص الداخلى . يقبّل جسدها ، يهصره ، يخمشه أحياناً ، يخترقها . يخلو ذهنها إلى مالم تعد للقائه ، فى جزر قريبة وبعيدة . تفيق على قومته ، وارتدائه ثيابه . لاتحادثه . تأخذ أجرها دون كلام . لايشغلها ملامحه ، ولاماذا كان يرتدى . عانت

من اللعاب المتخلف على كتفها العارى . يحرك نفسها ، فتجرى إلى الحمام ، تفرغ مابجوفها ..

قال لها صعيدى شحمى البدن :

ـــ هل تكتفين بالبحلقة فىّ ؟..

ودفع لها ثلاثة قروش :

ـــ تحركى !..

وصرخ فى الدهشة المتسائلة فى عينيها :

ـــ إهتزى .. أغنجى .. أصرخى .. إفعلى أى شئ !..

لما قذف فيها ظل ساكناً . فطنت إلى أن النوم غلبه ، عندما فاجأها شخير متقطع ..

تملصت منه ، فاستيقظ ..

حرصت ، فلا تجعل ساعديها بين الذراعين حتى يسهل تملصها ، إذا غلب الرجل النوم ..

تغيّر عناقها لسيد ، منذ اليوم الذى صحبها فيه إلى حدائق الشلالات . غابت الجزر القريبة ، والبعيدة ، وذابت فيه . تغالب شعوراً بالمتعة ، لم تكن عرفته ، ولااعتادته من قبل ..

قالت له مداعبة :

ـــ أعدت لى الإحساس بالرعشة إذا لمستنى يد رجل ..!

قال ليهون عليها :

ـــ سأعوضك عن الحقيبة ..

وهى تتلفت فى تحير :

ـــ لكن .. لماذا سرقوها ؟..

ربت كتفها :

ـــ أولاد الحرام كثيرون ..

أسعدها زوال لهجة الشك فى كلامه . يثق فيها ، وأنها هجرت سيرتها القديمة ..

همست فى عدم تصديق :

ـــ هل يكون حمادة بك ؟

هز رأسه بالنفى :

ـــ وماشأنه بك ؟..

روت له ماجرى بينها وبين الرجل ، عندما صحبته إلى داخل البيت المهجور . لم تُعِد نفسها لمضاجعته ، ولاداخلتها شهوة . انتفض جسمها بمشاعر لم تحس بها من قبل . زادت

فى الضربات ، وشتمته بما كانت تخشى أن تواجه به الذين عرفتهم ..

قالت وهى تدارى ابتسامة بكفها :

ــــ فعلت ماأرغبه ، وليس ماطلبه !..

يابنت الأبالسة !.. حتى صاحب الفرن وصل إليك ؟!..

قال فى حيرة :

ــــ ربما يمهد الرجل لطردك من البيت ..

لم تخف قلقها :

ــــ لماذا ؟.. ماأراده فعلته !..

ــــ تعرفين سره ..

سألت فى قلقها :

ــــ والحل ؟..

أغمض عينيه للحظات ، ثم قال :

ــــ قلت إن الحاج محمد الحلاق يعطف عليك ..

وهى تخفض رأسها :

ــــ إذا سرت أمامه ، دخل الدكان ..

فى استغراب :

ــــ لماذا ؟..

نقل إليها محمود عباس الخوالقة ماسمعه ، وأثاره . قال : نساء كوم بكير يترددن على الطبيب ليوافق على استمرارهن فى العمل ، ويتردد الحاج محمد صبرة على أنسية ، ليمنحها البركة !..

أشفقت على الرجل . لم تكن بينها وبينه علاقة من أى نوع . خشيت أن تنسب الشائعة إليها . تعلى من قيمتها ، وتسئ إلى الرجل ..

اعتادت المرور أمام دكانه ، منذ صحبها محمود عباس الخوالقة إلى بحرى . خلفت وراءها الخدمة فى البيوت وأهلها فى سحالى . إذا توجست من بيت شارع سيدى داوود ، تنقلت بين الشقق ، وحنيات السلالم ، والكبائن فى شاطئ الأنفوشى . وأمضت ليالى فى قهوة كشك . صعبت على المعلم كشك ، فأخلى لها تحت النصبة ، حتى اطمأنت إلى البيت المهجور . أزمعت أن تقيم فيه . تدخله عندما يأتى الليل ، وتغادره فى طلوع الصباح ..

* * *

يثق الحاج محمد صبرة أنه ليس فى ثراء ولامكانة حمادة بك والحاج قنديل وعباس الخوالقة وعبد الرحمن

الصاوى والشيخ طه مسعود . كان يحرص أن يلتقى اسمه بهم ، يفيد من اقترانه بأسماء الرجال المهمين فى بحرى . يعتز بأنه أدى فريضة الحج من قبل أن يولد . حجت أمه قبل ولادته بأشهر ، فأصبح حاجاً دون أن يرى العالم . وكان يحرص على جلسة العصر أمام الدكان ، وعلى درس المغرب ..

كان لدكانه بابان : باب يمارس فيه الحلاقة وعلاج المرضى ، والآخر يفضى إلى داخل بيته ..

المصادفة وحدها هى التى دفعته للمزاوجة بين الحلاقة والطب : شكا الحاج قنديل من صداع ينتابه بين فترة وأخرى . وصف له مجموعة من الأعشاب ، تسحق وتشرب على ريق الصباح . تذكّر الوصفة من كتاب فى مكتبة أبو العباس . أفلح العلاج ، كرره فى حالات أخرى لرجال آخرين ..

أقبل على قراءة الكتب : كتاب ابن سينا ، وكتاب الحاوى للرازى ، وشرح أسماء العقاقير للقرطبى ، والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة أولى الألباب والجامع العجاب لداوود الأنطاكى . أهمها كتاب منزوع الغلاف ، فى التعاويذ السحرية . يستمع إلى شكوى المريض . يتبين مواطن الألم .

يعود إلى الكتاب . يتأكد من تطابق التعويذة مع الحالة التى يعالجها . يكتب التعويذة فى ورقة . يضع الورقة فى إناء . يعطى الماء المتخلف للمريض ، فيشفى بإذن الله ..

وكان له ولع بتركيب الأدوية . يتردد على سوق الترك . يشير عليه العطارون بوصفات للأمراض المختلفة . يصنع من خليطها معاجين للحالات التىتتردد على دكانه ..

ملأ صيدلية الصالون بالمطهرات : الديتول والفنيك والكولونيا والقطن الطبى والمقصات المعقمة والشاش والمسكنات وحقن المورفين . صف على الأرفف أحقاق الصبر والمر والحنظل والكمون والحلبة وقشر الرمان وشواشى الذرة والبقدونس والنعناع والكراوية والشيح واليانسون والقرفة والدار صينى والمرارة . جمع له خميس شعبان الأصداف والقواقع من ظهر الترسة . جففها ، وطحنها ، وأضاف إليها بعض الزيوت . صارت مرهماً يستخدمه فى علاج الجروح ، وسرعة التئامها . يستخدمه كذلك فى حساسية الجلد . ويحمل فى جيبه زجاجة صغيرة من زيت الحبة السوداء . يثق أنها تشفى من كل مرض ..

تعلم الختان على يد عم جودة ، الحلاق اليهودى أول السكة الجديدة . قصر عمليات الختان فى المناسبات الدينية ، يعتذر عنها فى الأوقات الأخرى ، وفى الأماكن البعيدة . يجريها فى المولد النبوى ، وعيد الهجرة ، وذكرى الإسراء والمعراج ، وليلة النصف من شعبان ، وذكرى مولد المرسى ..

اقتنى حقيبة جلدية صغيرة . تضم قطعاً من القطن ، وزجاجة ميكروكروم ، وأخرى للكحول ، ولفافة شاش ، وموسى مما يستعمله الحلاقون ، ومقصات مختلفة الأحجام ..

قال له حمادة بك :

ـــ لاينقصك إلاّ سماعة الطبيب ..

قال :

ـــ إنى أكتفى بأذنى .. إنها سماعة إلهية !..

ذاع صيته فى شفاء المربوطين والمسحورين ، ومرضى الصداع والحمى والنزيف ، ووجع الجنب . وعالج دود البطن والدوسنتاريا والبواسير . لجأ إلى الأعشاب

والوصفات والرقى والأحجبة . ربما أضاف إلى علاج مرضاه آية الكرسى ، يتلوها بطريقة منغمة ..

روى أمين عزب ، انه صحبه بنفسه إلى الطبيب الأرمنى مردروس ، جاره فى الطابق الأول من البيت . تزايد الألم فى بطنه ، فغاب التصور أنه مجرد عارض . كشف عليه الطبيب ذى الجسد الممتلئ ، والشعر الأبيض ، والعينين الزرقاوين ، والذقن المدببة ..

سأل :

ـــ هل حاولت علاج نفسك ؟..

قال أمين عزب :

ـــ عالجنى الحاج محمد ..

وأشار إلى الرجل الطويل القامة ، ذى البالطو الأبيض ، والنظارة الطبية ، والحقيبة ، الواقف بجانبه ..

قال الطبيب متشككاً :

ـــ ماذا فعل ؟..

عدد له محمد صبرة ماقدمه من عقاقير وأعشاب ..

نقل الطبيب المسميات فى أجندة أمامه . أطال تأملها . ثم قال مؤكداً بنترأصابع يديه فى الهواء :

ـــ لن أصف لك أفضل مما وصفه لمرضك ..

وأردف :

ـــ داوم على العلاج !..

زاد إلى مهنته ممارسات ، مثل التدليك وكاسات الهواء والجراحات البسيطة : الفصد والحجامة والحمصة . فإذا أصيب شخص بتسمم ، لجأ إلى تشريط جلده بشفرة الحلاقة ، فيخرج الدم المسموم . ربما لجأ ـــ لشفاء مريض ـــ إلى كيه بالنار . يغلبه اليأس من العلاج ، فيعلن :

ـــ لما غضب لقمان الحكيم من الدواء .. رماه فى النار !..

ثم أعلن رفضه لإجراء الجراحات ، مهما كانت بسيطة . موسى الحلاق غدار ، ولاأمان له . قد تفيد قطعة الشبة فى إيقاف النزيف ، إن أخطأ الموسى فى حلاقة الوجه . ماذا يفعل لو أخطأ الموسى موضع الفصد ؟!..

قيل إنه احتفظ فى ضلفة الدولاب بكفنه ، وزجاجة من ماء زمزم ، لغسله ، وتجهيزه . وأوصى بأن يصلى عليه ـــ عند وفاته ـــ فى مسجد سيدى المسيرى القريب من الدكان ، والذى يصلّى فيه معظم الأوقات ..

***

قال سيد ، يناوشها :

ـــــ إذن .. إلجئى إلى أبو العباس ..

فاجأته بالقول :

ـــــ وقفت على مقامه حتى تعبت ..

تعددت زياراتها إلى ضريح السلطان ، تتحدث إليه ، تناجيه ، تشكو إليه ، تلتمس البركة ، تطلب النصفة والشفاعة والمدد . كنست الضريح بملاءتها ..

لما قهرها اليأس من أن يستجيب أبو العباس لها ، وينصفها ، وضعت على ضريحه شمعة بالمقلوب . تضايقه ، فيتنبه لما تعانيه ..

هتف سيد كالمتذكر :

ـــــ إذهبى إلى الشيخ أمين عزب ..

أعادت الإسم :

ـــــ الشيخ أمين عزب ..

سألت للتأكد :

ـــــ تاجر السمك ؟..

وهو يشيح بيده :

ـــــ كان ذلك من زمان .. هو الآن إمام زاوية خطاب..

أضاف بلهجة محرضة :

ـــــ كلميه ، فيطلب من حمادة بك أن يتركك فى البيت..

وشى صوتها بالتشكك :

ـــــ وإذا رفض ..

قال فى تأكيد :

ـــــ سيقبل .. يخشاه الجميع منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردونى ..

وهى تلملم ملاءتها حول جسمها :

ـــــ سأحاول .. وإن كنت لاأطمئن إلى النتيجة ..

خبط سيد على رأسه فى تذكر :

ـــــ أخيراً ..اكتشفت عين حمادة بك فى الفرن ..

استطرد للتساؤل فى ملامحها :

ـــــ حكاية الخبز الرجوع ..

قالت متنبهة :

ـــــ من ؟..

ـــــ فؤاد أبو شنب .. رئيس العمال ..

صمتت للحظات ، ثم قالت :

ـــــ هذا واجبه ..

قال سيد :

ـــــ صحيح لو أنه لم يهد الخبز الصابح لمن يشاء !..

ـــــ مسئوليته وهو حر ..

ثم وهى تربت صدره :

ـــــ أغناها الله بالحلال !..

هز رأسه مؤَمناً . تبين المفارقة فيما قالت . ضم شفتيه ، يخفى البسمة المتراقصة على شفتيه .

البـــــاب المغلــق

أذهلها الخوف من الجلوس فى حضرة الشيخ أمين عزب . اختارت الشوارع الجانبية : الكنانى ، والموازينى ، وسراى محسن باشا ..

ناوشها التردد حين واجهت ميدان الخمس فوانيس ، باتساعه ، والوجوه المطلة من النوافذ ، والمارة ، والجالسين على قهوة المهدى اللبان ، وبقايا سوق العيد ..

نفضت رأسها ، فلا يشغلها التفكير ، أو يقهرها . أحكمت الملاءة حول جسمها ، وتأكدت من وضع البرقع ، ورفعت ذيل الملاءة بأصابع متوترة ، واكتفت بغمغمة لاتعنى شيئاً ، وهى تواجه سؤال عم خلف البواب ، فى دخولها البيت :

ـــــ رايحة فين ؟..

تابعت موعد انصرافه من زاوية خطاب ، بعد صلاة العشاء . يمضى فى شارع المسافرخانة ، ومنه إلى الحجارى ورأس التين . يلقى السلام على رواد قهوة المهدى اللبان ،

ويصعد إلى بيته . يضئ حجرته المطلة على الميناء الشرقية ، ساعة أو اثنتين . ثم يطفئ النور ، فلا يضيئه ثانية إلاّ مع تسابيح الفجر ..

سبقته إلى دخول الحجرة سيدة جاوزت الثلاثين . خمنت من بشرتها الوردية ، والذؤابات الحمراء فى شعرها ، داخل الإيشارب الحرير ، أنها أخته ، أو إحدى قريباته ..

* * *

البيت يطل على ثلاث جهات . من ناحية على شارع رأس التين ، فى امتداده إلى الموازينى والحجارى ، وعلى شارع فرنسا إلى المنشية . أما الواجهة ، فتطل على شارع اسماعيل صبرى ، يتجه ـــ فى ناحية ـــ إلى الميناء الشرقية . وأما النوافذ والشرفات الخلفية ، فتطل على الشارع الخلفى . يشغل جانبه ـــ فى الناصية ـــ جامع على تمراز ، فبيتان من خمسة طوابق ، ينتهيان إلى فرن التمرازية ، واجهته على شارع الشوربجى . ضيق ، طويل ، يفضى ـــ من جهة ـــ إلى الموازينى ، ويمثل ـــ فى الجهة المقابلة ـــ توازياً لشارع الميدان ..

مع أن أفراد الأسرة كانوا يمارسون العادى والمألوف . ينصرفون إلى مدارسهم ، ويعودون منها ، ويطلون من النوافذ والشرفات ، يتابعون مواكب الملك ، والطرق الصوفية ، وسوق العيد ، وينادون على الباعة ، وينشرون الغسيل ، ويفتحون الراديو ، فيصل صوته إلى بقية شقق البيت ، ويجلس الصغير طاهر ــــ من العصر إلى قبل الغروب ــــ على دكة عم خلف البواب .. مع ذلك ، فإنهم كانوا يميلون إلى العزلة . لايتبادلون الأحاديث مع الجيران ، ولايشجعون التزاور فى المناسبات . لم ترو جارة فى البيت أنها شاهدت الشقة من الداخل . صعب على الأسرة أن تندمج فى البيئة التى تحيا معها ، وصعب على البيئة أن تجتذبها ، فاكتفى الجميع بالحد الذى وضعه أمين عزب فى علاقة أسرته بجيرانها ..

كانت له ــــ فى بيته ــــ مكتبة هائلة . صنع لها أرففاً تمتد من الأرض إلى السقف ، بسعة حجرة كاملة . مبذولة لمن يريد الاستعارة من أصدقائه . يترددون عليه ، يلتمسون عنده النصح والإرشاد والفتوى الصحيحة ، مصادرها بطون الكتب . وكان يخلو إلى الكتابة والتأليف ،

عقب عودته من زاوية خطاب . ينظم الأوراق والأقلام والدواة والنشافة ، والكتب التى قد يحتاج الرجوع إليها . يسأل أهل البيت إن كانوا يحتاجونه فى شئ ، ثم يغلق عليه باب حجرته . ينصرف إلى الكتابة ، حتى تغلبه الحاجة إلى النوم ..

لم يعد يغادر الزاوية إلاّ إلى البيت . عاش ــــ منذ هجر حلقة السمك ــــ على إيراد بيت قديم فى شارع حداية ، وعلى إيراد بلانس ترك أمره لعباس الخوالقة . يحدد موعد السفر ، والجهة التى يقصدها ، وأسعار السمك . يحاسبه على نسبة ، ويوزع الباقى على الصيادين . سبب نعمته ، صحوه ــــ ذات فجر ــــ على دقات عالية . فتح الباب ، فطالعته بغلة العشر . اختارته دون العالمين ، لتلقى أمامه بخرج مملوء ذهباً ..

قل تردده على دروس أبو العباس . ثم لم يعد يظهر ــــ إلاّ نادراً ــــ فىصحن الجامع ، ولاأمام أبوابه ، ولاعند المقام . فلما أظهر ضيقه من المنكرات التى تسللت إلى حلقات الذكر ، ومن بدع الطرق الصوفية ، ران صمت على مجلس الإمام ، وإن غابت الاستجابة . وكان ذلك آخر

عهده بجامع المرسى ، فيما عدا مشاوير متباعدة لصلاة الجمعة ..

وخرج ـــ ذات ليلة ـــ لجماعة كونوا حلقة ذكر ، فى الساحة المواجهة لزاوية خطاب ، وتعالت مدائحهم الممهدة ..

أمرهم أن يقيموا أذكارهم فى مكان آخر . ثم أعلن ـــ فى خطبة الجمعة التالية ـــ رفضه للأعلام والرايات والطبول والدفوف والرقص والانجذاب والمواكب والتحلق حول شيوخ الجهل ..

مع أن صديقيه عباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوى ظَلاَّ حريصين على درس المغرب ، فإنه لم يعد يتردد عليه . إنما هى صلاة الجمعة ، يؤديها ـــ أحياناً ـــ فلا يظل فى الجامع ، حتى لزيارة مقام السلطان ..

وحين استوقفته امرأة ـــ عقب صلاة الجمعة ـــ تحمل طفلاً مقيد الساقين ، ترجوه أن يفك القيد ، ليعينه على المشى ، انتهرها فى غضب :

ـــ هذه خزعبلات ياامرأة .. اذهبى بالولد إلى الطبيب ..

وأهمل ملاحظة عبد الرحمن الصاوى :

ــــ أنت بهذا ترفض كرامات شيخك عرفة الأنصارى ومكاشفاته ..

شاهده الكثيرون عندما جلس فى الموضع الذى خصص لجلوس الملك فاروق بجامع على تمراز . أُعْلِنَ أن الملك سيصلى فى الجامع ، واصطف العساكر فى ميدان الخمس فوانيس ، وتناثروا فى سطح الجامع ، وفوق مئذنته ، وفى أسطح البيوت المطلة على الميدان ..

نبهه المعلم كشك إلى مافعل ، فظل جالساً :

ــــ هذا بيت الله ..

خالط نصيحة المعلم كشك إشفاق :

ــــ أنا لم أطلب منك ترك الجامع .. اختر موضعاً آخر !..

قال فى إصرار :

ــــ هذا هو الموضع الذى اخترته !..

ظل فى المكان . يأبى أن يتركه ، لولا رجاء الشيخ عبد الحفيظ ــــ إمام الجامع ــــ وكان يضمر ، ويعلن ، له احتراماً ــــ فأخلى مكانه ، وجلس بين المصلّين ..

أعلن سخطه لما عرض على الشيخ أحمد أبو دومة ، صاحب كُتَّاب " ولى العهد " بشارع فرنسا ، أن يقدم جرساً هدية للكتاب . اعتذر الشيخ بأن النبى حذر من أن الجرس آلة الشيطان الموسيقية ، والمكان الذى يوضع به جرس لابد أن يخلو من الملائكة ..

* * *

سحب يده ، لما همت بتقبيلها ، وأصر أن تجلس فى الكرسى المقابل . تحيط بها أرفف الكتب . وفى الجانب ، تطل الشرفة على الأضواء المتناثرة فى الميناء الشرقية . وتتناهى من قهوة فاروق القريبة ، أغنيات الفونوغراف ، ونداءات الجرسونات ، وصيحات الجالسين ..

ذهب خوفها ، فى اللحظة التالية لجلوسه فى المقعد الجلدى ، وراء المكتب . سألها إن كانت من الاسكندرية ، أم من الوافدين إليها . لم يسألها عن اسمها ، ولاوظيفتها ، ولأحوالها الأسرية . هو ـــ بالتأكيد ـــ يعرف إسمها ، وماذا تعمل ، وإن أظهر عدم المعرفة ..

دفعها ـــ بنظرة حانية ـــ إلى التحدث ..

روت مالم تكن تتصور أنها ستروية لرجل فى مثل سنه ومكانته . لاحظت اختلاج لحيته الكستنائية ، وارتعاش أهدابه ، واحمرار أذنيه ، ونظرات حرج يرنو بها إلى المرأة الأخرى ، الساكنة . لكنه ظل على هدوئه وصمته . يستحثها على المواصلة بصوت رتيب ، من فمه المغلق ..

أعاد التأكد من انسدال العباءة فوق كتفيه ، واعتدل فى جلسته ، بحيث واجهتها عيناه..

أخفضت رأسها للبريق الهادئ ، الملتمع فى العينين :

ــــ أريد خدمة ..

وهو يتأمل التفاف الملاءة حول جسمها :

ــــ ماذا تطلبين ؟

فى لهفة :

ــــ يتركنى حمادة بك فى البيت ..

علا صوته بالدهشة :

ــــ هذا بيته ..

غالبت الارتباك :

ــــ أعرف .. لكنه مهجور !..

أغمض عينيه ، كمن أسلم نفسه لغفوة . ثم قال :

ـــ منذ لزمت زاوية خطاب ، لم أعد ألتقى بالرجل ، ولا بسواه ..

همست بجرأة ، لم تتوقعها فى نفسها :

ـــ يتحدثون عن طردك للرجل الغريب فى قهوة الزردونى ..

أطلق ـــ من أنفه ـــ ضحكة مبتورة :

ـــ هل تريدين أن أضرب حمادة بك ؟!

وأردف بلهجة معتذرة :

ـــ ماحدث فى قهوة الزردونى لإعادة الأمان إلى الحى ..

وقال للارتباك فى ملامحها :

ـــ سأحاول أن أزوره فى مكتبه ، أو فى دكان الحاج محمد صبرة ..

ثم فى صوت يفعمه التساؤل :

ـــ قيل إنه لم يعد يحضر دروس المغرب فى أبو العباس ..

مضت لحظات صمت . توزعت نظراته بين أنسية والمرأة الجالسة ، ثم انتزع الكلمات :

ـــــ عليك أولا أن تبتعدى عن هذه الـــ ..

وتشابكت أصابع يديه ، وافترقت ، وتشابكت ، ثم سكت .

استقباله الطيب أذهب كل الوساوس من نفسها . فاجأها بالقول ، فأطرقت رأسها ..

علا صوته مستطرداً :

ـــــ وعليك أيضاً أن تبتعدى عن حياة الخفافيش فى البيوت المهجورة ..

أخذتها المفاجأة ، فعصتها الكلمات ..

قال وهو يتأمل الكتب المرصوصة :

ـــــ لماذا لاتعودين إلى الخدمة فى البيوت ؟.. ذلك أرحم .. ويضمن لك المأوى ..

أضاف فى تشاغله بتأمل الكتب :

ـــــ أثق أن لك أسرة طيبة .. إن لم تكن الخدمة فى البيوت تروقك ، عودى إليهم ..

ولون صوته ، بما يهب معنى يقصده :

ـــــ أنت الآن كبيرة .. ولن يجبرك أحد على فعل شئ!

تألقت عيناه ـــ فى اللحظة التالية ـــ بمودة واضحة

. وهمست لنفسها ، وهى تميل فى شارع سليم البشرى :

ـــ هل اكتفى بالبسملة والتكبير ، قبل أن يجز عنقى

!؟ ..

بعيـــــــداً عن الشاطئ

تك تك .. تك تك .. تك ..

ثم وهن صخب الموتور . سكنت الحركة فى اللنش الصغير ، وماحوله . توقف تماماً ..

نظر ــــ بتلقائية ــــ حوله ، وهو يحاول معالجة العطل . على اليمين قلعة قايتباى . أمامه المراكب الصغيرة ، فى نهاية الميناء الشرقية . يشاهد حركة العاملين فيها ، وإن لم تصله أصواتها . وعلى اليسار ــــ من بعيد ــــ لسان السلسلة يمتد إلى داخل البحر ..

لم يكن يعرف فى اللنش إلاّ أن يدير المفتاح ، فيدور المحرك . تابع الولد زعرب يفعل ذلك ، ففعل مثله . عرض الولد أن يدله على بقية الخطوات ، فرفض :

ــــ إذا تعطل .. فسأدعوك للتصرف ..

أردف وهو يعبر بيديه :

ــــ أنا لاأبتعد عن الشاطئ كثيراً ..

هم زعرب بالمزيد من الشرح ، فأسكته بإشارة من يده..

حرص ـــ فى البداية ـــ ألا يجاوز المنطقة ، مابين نهاية الميناء الشرقية ، إلى حيث يطل على جامع البوصيرى وميدان أبو العباس ..

لم يكن يعرف العوم أيضاً . أوامر أمه الصارمة لم تتح له مجرد الجلوس على شاطئ البحر ، أو اللعب فى الشارع الخلفى ..

كان يتابع ـــ من البر ـــ سباق القوارب . القوارب الحمراء من السيالة ، والخضراء من رأس التين . الفائز يسرق الريح من الآخرين . يركبه ، يغطى قماش قاربه على القارب المجاور . يطلع فوق ريحه . كلما كان الشراع كبيراً ، امتلأ بالريح أكثر ، وإن تعرض غير الفاهم للغرق . لامقاديف . القيادة لماسك الدفة . الطريق المستقيمة خاطئة . كلما كان سن المركب من أسفل ممدوداً وحاداً ورفيعاً ومسحوباً ، كانت فرصة الفوز أكبر . المصيبة لو أن الصارى التف بالشراع . يدور حول الشاطئ ، ثم يتجه ـــ بميل ـــ إلى الجزيرة فى مدى الرؤية ، والعودة . من يعود أولاً هو الفائز . يحمل مع أصدقائه قاربه ، يسيرون فى الشوارع من رأس التين إلى مرسى القوارب والفلايك

بالميناء الشرقية . يتجهون ـــ فى مظاهرة الفرح ـــ إلى ميدان أبو العباس ..

يغنى الفائزون من السيالة :

قفة رملة وقفة طيـــــــــن

على ولاد راس التيـــن

ويغنون :

وديتوا عشاشكـــــوا فين

لما الملـــــك شحطتكـــوا

ويغنى الفائزون من السيالة :

سيـــــــــــــالة ياسيالـــــة

يااللى مافيكـــــى رجالــــة

ويغنون :

عملوا حمام الأنفوشى

علشان نسوان السيالـــــة

أحس بالوحدة ، فداخله خوف ، لم يقلل منه رؤية قلعة قايتباى القريبة ، ومعهد الأحياء المائية ، ولاأشرعة السفن الصغيرة ، تتماوج فى زاوية الميناء الشرقية ، ولا الأصوات المتلاغطة ، البعيدة ، لايعرف ـــ بالضبط ـــ مصدرها .

تمنى لو اقترب صوت ، أو مرت فلوكة بالقرب منه . صعب أن تموت ، فلا يدرى بموتك ، ولابمكانك ، أحد . تغرق ، تنتهى ، كأنك لم تكن ..

نادى بأعلى صوته ، فتبدد النداء فى الفراغ ..

ارتفعت شمس الضحى ، فسال العرق على وجهه ، وأحس بالتصاق الثياب ..

الزورق جزيرة لايراها أحد . يشاهد الجالسين فى المراكب ، وعلى الشاطئ ، وغازلى الشباك ..

ينادى ، ويلوح بيده ، ويقفز ، فلا يغادر السكون حوله مألوفه . حتى زوارق السواحل اختفت ..

أبعد مكان سار إليه ، خلف قلعة قايتباى ..

السور المرتفع لمساكن السواحل ، والهدوء أغراه بالتلميح . ضحك عباس الخوالقة من أعماقه : قل لصاحبك . لاأقوى على القول إنى أنا صاحبى . روى عن أنسية وشخص آخر ، أسعفه الخيال برواية ظروفه . آلمه الإحساس بتفوق الخوالقة ، وضآلته . يتكلم ببساطة ، يناقش ، ويسأل ، ويعلق ، ويدهش ، ويسخر . يكتم فى صدره

الكلمات ، يقلبها ، فلا يتحدث إلاّ بما يحوم حول السر ، ولايكشفه . كره عباس الخوالقة ، وكره نفسه ..

اتخذ قراراً مفاجئاً بالعودة . كره المكان أيضاً ، فلم يذهب إليه ثانية ..

أجهده السر ، والتطلع إلى المشتهى . حتى جلوسه فى صحن أبو العباس . يختار موقعه فى مواجهة المقام ، للفرجة على اللواذ بالسلطان ، الطواف حول الضريح ، الهمسات بطلب النصفة والبرء والشفاعة والمدد . لايحول عينيه . ربما وجد استجابة ، فيخرج وراء الإيماءة إلى الدحديرة الخلفية . يروى مايعانيه . ينفض عن نفسه ماشغل أعوام عمره ..

أضناه السير فى الحوارى والأزقة ، والتطلع فى النوافذ والبلكونات . لايكشف مايعانيه بغزل أو مخاطبة . يكتفى ـــ إذا كان المكان خالياً ـــ بالتلصص وإطالة النظر ..

أهمل ماروى عن قاسم الغريانى إنه عرض على نبوية زوجة توفيق مكوجى الرجل ، أن تضايق زوجها ، فيطلقها ،

ويتزوجها هو . ثار المكوجى لأول بادرة ، وألبسها جردل الماء ، فعادت إلى طبيعتها المستكينة ..

أقلقه أن المعلم أحمد الزردونى شاهده وهو ينتظر أنسية ، أمام بيت مهجور ، تطل عليه نافذة شقته بشارع سليم البشرى . أطفأ الزردونى النور ، وتطلع من خصاص الشيش ، حتى قدمت أنسية . اصطحبها إلى داخل البيت ، ومضى وقت ، قبل أن تغادر أنسية البيت ، ويلحق بها ..

هل روى الزردونى مارآه من النافذة المطلة على البيت المهجور ؟ وهل فضفضت أنسية لسيد الفران ؟..

تعددت زياراته إلى قهوة الزردونى ، منذ اعتزم الترشيح للانتخابات . الصيادون ـــ كما وعده الحاج قنديل ـــ ورقته الرابحة بين مرشحى الأحزاب . لم يواجه إشارة ولاتلميحاً من المعلم الزردونى ، ولا من رواد القهوة . رحبوا به ، وبالمشاريب على حسابه ، ووعدوه خيراً ..

سأل المعلم الزردونى :

ـــ هل حددت الحكومة موعد الانتخابات ؟..

ـــ لا !

واستطرد بثقة العارف :

ـــــ لكن الأحوال السياسية تؤكد ضرورة إجراء انتخابات جديدة ..

تأمل سيد الفران ، وواجه عينيه ..

بدا مرتبكاً للسر الذى يعرف أنه يعرفه . يسرق الخبز الرجوع ، ويعطيه لأنسية .

أنسية !..

هل روت ماجرت فى البيت المهجور ؟.. وهل ارتباك سيد ـــــ هذه المرة ـــــ لأنه يخشى افتضاح ماقد تكون أنسية ائتمنته عليه ؟!..

أجهده كتم السر . لمح لزوجته ، فى لحظات الاشتغال . رفضت بما لم يتوقعه :

ـــــ أنا زوجة ولست عشيقة !

قلبت شفتها ، وأردفت :

ـــــ المفروض أنى تزوجت رجلاً !..

تذكر ـــــ بينه وبين نفسه ـــــ قول المعلم التميمى : المضاجعة الحلال لالذة فيها !..

زوجه أبوه قبل أن يبلغ العشرين . اجتذبت الأب دوامة المرض ، فأراد أن يطمئن عليه فى حياته . اختار له نهى

بنت سعيد النقيب . شغله النسب ، ولم يعن حتى بأن ترى زوجه الفتاة . وافق على شروط أبيها . حتى أعماله وأملاكه تنازل عنها ـــ فى حياته ـــ شرطاً لقبول سعيد النقيب تزويج ابنته من وحيده . ساعد على قبول الشرط فشل حمادة فى الدراسة . أنجب منها بنتين وولداً . مع ذلك ، شكا لأمه أن علاقته بزوجه ، أقرب إلى الجيرة . يتعاشران ، ويتحادثان ، وينعيان المشكلات .. لكن الحائط الغلالة قائم ، ويصعب إغفاله ..

تنبه لصوت محرك يقترب ..

حدق النظر فيما حوله : شابان يقودان لنشاً ، مضى من وراء القلعة فى اتجاه السلسلة . اختفى اللنش بعيداً ، قبل أن يصيح منادياً ..

أرهقه ابتعاد أمواج يتمناها . أمواج عالية متوالية ، تلطم وجهه ، تعلو بجسمه ، وتسلمه إلى الأعماق ، تقذف بملوحة الماء فى فمه ، تحيط به أسماكها فتدميه .. لكن السراب ظل على سكونه فى نهاية الأفق . لاحياة تجتذبه من دوامة الترقب والجنون والاشتعال . ترك لفؤاد أبو شنب إدارة الفرن ، وتحصيل الإيجارات . يسلمه الفراغ إلى الغابة

الوحشية . ينصت إلى أصوات الزئير والخوار والفحيح . يشقيه غياب الومضات والإيماءات المحرضة . رد الفعل المغاير لايقوى على تحمله . يصخب فتقتله النظرات الشامتة . يصعب أن يجلس فى قعدة العصر أو صلاة المغرب . ربما عصته خطواته عن السير . هده التطلع إلى مابعد الوقفة أمام ترام الرمل ، وملاحقة النظرات لعابرات السبيل والنوافذ المفتوحة والملامح المجهدة حول مقام أبو العباس ، واللف فى الحوارى والأزقة ، وترقب المفاجأة ..

أنقذته كلمات الحاج قنديل من الحصار القاسى . انفراجة الباب نبهته إلى دنيا لم يعرفها ولا تصورها . يشارك ـــ بالمسايرة ـــ فى أحاديث السياسة ، ويكتم الدهشة لانفعالات التأييد والمعارضة ، ويسكت ـــ حتى يخطئ ـــ عن التعقيب علىماينقلونه من الراديو والصحف..

حمّل صوته نبرة اعتذار :

ـــ للسياسة رجالها !

قال الحاج قنديل :

ـــ وهل أنجبتهم أمهاتهم ليدخلوا البرلمان ؟!..

ثم وهو يشيح بيده :

ـــ توكل على الله !..

وحدجه بنظرة مستغربة :

ـــ لماذا ننتخب فى كل مرة مرشحين من خارج بحرى ؟..

ثم وهو يجرى بباطن يده على مبسم الشيشة :

ـــ أعدك بتأييد كل الصيادين إذا رشحت نفسك ..

فاجأه العرض ..

لم تكن السياسة مما يدور له ببال . يشارك فى الاجتماعات الحزبية ، وأحاديث السياسة ، وفى مرافقة المرشحين ، وإن رفض كل الدعوات للانضمام إلى أحد الأحزاب . يعرف أسماء سعد زغلول والنحاس وأحمد حسين واسماعيل صدقى والنقراشى وأحمد ماهر وابراهيم عبد الهادى وحافظ عفيفى . يعبّر عن تعاطفه ، أو رفضه ـــ من خلال الروايات ـــ عما يفعله الزعماء . هزته حادثة كوبرى عباس . أمر النقراشى البوليس بفتح الكوبرى ، فغرق العشرات من الطلبة المتظاهرين . كره النقراشى من يومها . نسى حتى عبارته التى رددتها جريدة " الأساس

" : أخرجوا من بلادنا أيها القراصنة . شارك ـــ بالمشاهدة ـــ فى المظاهرات المتعاقبة لطلاب المعهد الدينى . لاتشغله الهتافات ، ولاماذا يطلبون . إنما هو فضول المتابعة . وعندما يبدأ الصدام بين المتظاهرين والعساكر ، يسبق الآخرين فى اللواذ ببيت قريب ، أو الفرار من شارع جانبى..

أجفل لصيحات متآلفة ، طارت فوقه . سرب من النوارس ، قطع نصف دائرة ، ثم مضى بعيداً ..

أهدى قهوة الزردونى ثلاث نرجيلات ، مبسم واحدة من العاج ، والثانية من الكهرمان ، والثالثة من الفضة . حرص على أداء كل الأوقات فى أبو العباس ، وفى جوامع الحى الأخرى ، ومساجده ، وزواياه . ثم جرفته فكرة الترشيحللانتخابات ، فلم يعد يدرى أين يذهب . قدم لزاوية خطاب منبراً ، وفرش أرضياتها بالحصير . أدرك موقع أمين عزب فى نفوس أبناء الحى ، منذ طرد الرجل الغريب من قهوة الزردونى . انقطع الرجل عن درس المغرب فى أبو العباس ، وعن الجلسة أمام دكان الحاج محمد صبرة .

تحددت حياته بين الزاوية والبيت ، فلا يكاد يلتقى إلاّ بالمترددين عليه ..

أشار عليه الحاج قنديل ـــ لتأكيد صداقته ، ولشراء الناخبين ـــ أن يزود الزاوية بما تحتاجه ، ففعل ، وإن التقى بأمين عزب ، عقب صلاة العشاء ، ليلة ، فى أبو العباس ، فلم يشر إلى ماقدمه للزاوية ..

الضحى أنسب الأوقات لعودة البلانسات والفلايك والدناجل والقوارب الصغيرة إلى الشاطئ . تلقى مراسيها . تعد للرحلات التالية . لكن الشمس اقتربت من وسط السماء ، وتموجت المرئيات بالأشعة القاسية . اختلط العرق والملح فى ثيابه ، فالتصقت بجسمه . ليس إلاّ الأفق ، والأمواج الهادئة ، والشمس ، والسماء ، وقلعة قايتباى ، والقوارب الساكنة فى المرساة ..

داخله القلق : ماذا لو استطال الوقت ، دون أن يأتى من ينقذه ؟!..

أقنع نفسه بمحاولة السباحة إلى الشاطئ . مائة متر ، أو أقل . نزعت العصبية كل ثيابه . لم يعد إلاّ سرواله الداخلى . أغمض عينيه ، وقفز . يتذكر ماتعلمه ، ويسبح .

تلاشى التردد . المياه تحيط به . يضربها بساقه وذراعه . يحرص ألاّ يدخل الماء فمه أو أنفه . لايسبح بطريقة محددة تعلّمها . مايهمه هو الوصول إلى الشاطئ . نزل إلى المياه ، فلابد أن ينزل إلى الشاطئ ..

أحس بالمياه تجتذبه . تتسلل إلى فمه وأنفه وأذنيه . أحس أنه يختنق ، وأنه يموت ..

صرخ بآخر ماعنده ..

الحلقـــــة

يـــارب ياخـــالق البرايـــا

يامـــن تعالى على الشبيـــه

ياكاشف الضـــر والبلايـــا يـــامن إلـــى

الكـــرب أرتجيـــه

يـــامـــن يـــرانى ولاأراه أهلـــك

عـــدوى ومن يلـــيـــه

يامجزل الفضـــل والعطـــايا فى كـــل

وقـــت لســـائليـــه

يامنفـــذ الحكـــم والقضايـــا

ولاعتـــراض لنـــا

عليـــه

الحلقة واسعة ، مسورة ، مسقوفة . هجرها الصيادون والباعة إلى الرصيف ، قبالة الباب الضخم . حتى باعة

الترسة ، وقفوا فى الساحة العارية ، الملاصقة ، يتأكدون ـــــ قبل الذبح ـــــ من وجود زبائن ، يتقاسمون لحم الترسة قبل ذبحها . صفت الطبالى على الأرض ، وفوق الترابيزات الكبيرة . يتخلل الثلج أسماك : الدنيس والقرموط والمرجان والمياس والبورى والبربون والإنش والوقار واللوت والشرغوش والكحلة والطوبارة والقاروص والموزة والسبيط وسمك موسى والكابوريا والجمبرى ..

ترامى نداء من بعيد . تصور أنه منادى يعلن عن وفاة أحد أبناء الحى ..

لما اقتربت اللمة ، عرف أنه إعلان عن ذبح ترسة . لاتذبح إلاّ إذا بيعت ـــــ مقدماً ـــــ بما يساوى وزنها . يرفض الناس شراء لحمها من الثلاجة . يخشون أن تكون ميتة . أخليت عربة يد لترسة هائلة الحجم ، رقدت على ظهرها . تداخلت ـــــ إتقاءً للخطر ـــــ فلا رأس ولاعنق ولايدان ولارجلان ولاذنب ..

قال عبد الرحمن الصاوى للولد حنفى :

ـــــ لاتذبحها قبل أن تلم الفلوس ..

وتنهد :

ـــــ مشكلة الترسة أن لحمها لابد أن يباع طازجاً ..

لما اطمأن حنفى إلى المبالغ المدفوعة ، دسها فى جيب المريلة الجلد . أمسك برأس الترسة الراقدة على ظهرها ، وبسمل ، وكبر . ثم ذبح زورها بسكين كبيرة ..

تدفق الدم من الشريان ، فخنقه بأصابعه . فتحه ، وأغلقه ، لملء توالى الأكواب . عشرين كوباً وأكثر ، اندلقت فى الأفواه ، دفعة واحدة . يرون فى دم الترسة شفاء لمعظم الأمراض . يهب الصحة والعافية ، ويلغى الدواء . انتفضت قطع اللحم ، تقافزت . أعادتها الأيدى إلى موضعها فى منتصف العربة . اختلطت بالدم المتدفق ، تشبث يدا حنفى بها ، حتى لاتفلت . كأنها حيوانات صغيرة ، والرأس المفصول ـــــ فى جردل ـــــ يحرك عينيه وفمه . إعتاد الناس مارأوا . تشاغلوا بتلقى الدم الفوار فى الأكواب ، وارتشافه ..

قال للشيخ يوسف بدوى :

ـــــ أفتى إمام أبو العباس بعدم جواز شرب دم الترسة..

قال يوسف بدوى :

ـــ اجتهاد غير صحيح .. فدم الترسة حلال ..

أردف موضحاً :

ـــ الدم المحرم هو الدم المسفوح .. أسماك البحر تحل ميتة دون حاجة إلى ذبح . والترسة كلها ، لحمها وشحمها ودمها ، حلال .. لأن دمها ليس من نوع الدم المسفوح ..

ـــ من تريد ؟..

ألفوا سحنته الجديدة ، بعد أن أطال ذقنه . أهملها دون تشذيب . تصاعدت الشعيرات إلى قرب عينيه ..

قال لدياب أبو الفضل وهو يتجه إلى داخل الحلقة :

ـــ الحاج قنديل ..

قعدة صغيرة فى زاوية الحلقة . كرسى جلس عليه الحاج قنديل . أمامه طاولة ، عليها فنجان قهوة ، ومبسم الشيشة الفضى . تناثر ـــ فى الأرض ـــ قفف ومقاطف وغلقان وطسوت وحلل هائلة الحجم وألواح مغطاة بالثلج المجروش . يحرص على المحاسبة قبل العصر . الملائكة الموكلة بقسمة الأرزاق تختار بعد العصر لتجرى قسمتها .

من تراه على سعة ، زادته . ومن كان فى ضيق ، منحته بما يحفظ عليه حياته ..

ميز الحاج بنظارته المقعرة ، وشاربه المنسدل على فمه ، وصوته المشروخ ، وعباءته البنية ، تبدو فضفاضة على جسمه الضئيل ، والشيشة التى لايؤذن بدخولها الحلقة لسواه ..

رفض عبد الرحمن الصاوى أن يعطيه شروة ، ليسرح بها . هل تتصور أنى أغضب الحاج قنديل ؟..

ثم وهو يزغده فى كتفه :

ـــ إذهب إليه ، وصالحه ..

اكتفى بوقفته أمام حلقة السمك فريشاً . يفرش على عربة صغيرة بضاعته من السمك البسارية والزريعة . فوقها مظلة تقى حرارة الشمس . اعتذر عباس الخوالقة وعبد الرحمن الصاوى وبقية المعلمين والباعة ، عن تزويده بما يحتاج إليه . نعوا هم الحاج قنديل ، وتجنبوا إغضابه ..

حكى للشيخ يوسف بدوى مايعانيه . لمجرد التنفيس ، لاتوقعاً أن الشيخ ربما تكلم مع الحاج قنديل ، ولاسعى له

عند معلمين آخرين . علا صوته بكلمات معتذرة ، لما رأى يد الشيخ تدخل جيب العباءة ..

قال يوسف بدوى :

ـــ الشيخ مسئول عن مريده . فرض عليه أن يشفق عليه من قسوة أحواله ، بما يكون جبراناً لتقصير المريد ..

كان مستراحاً لمريديه ، كهفاً لهم ، ملاذاً ، خزانة وحرزاً لأسرارهم . لم يستمع منه إلى غيبة ولانميمة ، ولاذكر مساوئ الآخرين ، أو أفشى أسرارهم . قلبه بحر يبتلع الأسرار والجيف ، لايعلن عما بداخله ..

رافقت هزة رأسه كلماته المعتذرة :

ـــ إذا ساءت الأحوال ، فلن ألجأ إلاّ إليك ..

رغم الذقن الكثة التى أحاطت بوجه يوسف بدوى ، فإن بريق عينيه كان يحدد سنه ، بما لايجاوز الخامسة والثلاثين ، فالراكشى أكبر منه بسبع سنوات ، وإن جاوزت العلاقة بينهما صورة الشيخ والمريد . تبدو أقرب إلى علاقة الأب وابنه . يسأل على الراكشى ، ويشكو الهموم ، ويتمنى الحل . ويوسف بدوى يجيد الإصغاء ، ويضع للمشكلة إطارها ، فتبدو واضحة ، والحل ممكناً ..

ألحق أبو بكر ثانى أبناء على الراكشى بمدرسة راتب باشا بشارع رأس التين . وتوسط عند المشرفة التركية فى مدرسة مصر الفتاة بصفر باشا . تنازلت عن مصاريف الدراسة لثالث أبنائه عثمان . وعندما أنجبت أم العيال طفلة خامسة على أربعة أولاد ، أهداه حلقاً صغيراً من الذهب ، وقال :

ـــ البنات أحباب الله !..

نصحه بأن يرسو على بر . السمك مهنته ، صياداً وبائعاً . المهن الطيارى لاتؤكل عيشاً . صيد الطير له مواسم . مواسم السمك بامتداد العام ، وهو مهنته التى عاشها عمره . يعرف أحوالها ، ويعاشر المغموسين فيها . الوقفة وراء مساكن السواحل ، تضعه فى جزيرة ، لايخالط الصيادين ، ولاالباعة ، يعزل نفسه عن الجميع ..

قال بنبرة تقطر حزناً :

ـــ الحاج قنديل يرقص فى مركبى ..

حدجه يوسف بدوى بنظرة متسائلة :

ـــ كيف إذن يعامل الآخرين ؟..

صمت للحظة ، كأنه يستجمع الكلمات :

ـــــ يوافقون على مالا أوافق عليه ..

قال الشيخ فى صوته الهادئ :

ـــــ أفضل أن نناقش أنفسنا .. ربما غاب داخلنا عيب لم نفطن إليه ..

علت كلماته بنرفزة :

ـــــ الحاج قنديل هو العيب نفسه !..

دون أن يجاوز هدوءه :

ـــــ حاول أن تناقش نفسك .. راجعها .. ولن تخسر شيئاً !..

قيل الكثير عن بداية الحاج قنديل . لم يختلف عن سواه من الصيادين. سنارة و" غلق " وتنقل بين الشواطئ ، أو يشترى مما تأتى به الجرافات فى حلقة السمك . هو الآن يزود البلانس بكل مايحتاجه . الطعام والماء والشاى والسكر والجاز والبنزين وألواح الثلج . حتى السجاير يطمئن الحاج إلى وجودها ، قبل أن يبدأ البلانس رحلته . يطوف صبيانه على بيوت الصيادين أيام النوات . يسلمون كل بيت مايحتاجه من المال والشاى والسكر والسجاير . يسجل لكل صياد مأأخذه . يحاسبه عليه فيما بعد . يعود البلانس بعد أيام .

ربما امتدت غيبته أسبوعاً ، أو أكثر . الحاج أول من يصعد إليه . ينتقى من الطبالى المرصوصة أفضل مافيها ، عشا المعلم . ثم يزن السمك بالأقة . كل أقتين بخمسة قروش . لايهم النوع ولاالحجم . لايأخذ إلاّ الطبلية . ثم يخصم ثمن البنزين والجاز والثلج . يرجئ ثمن الطعام والسجاير والمعسل إلى بداية الرحلة التالية . يدفع صبيانه فى مزادات بيع السمك . يزايدون على الباعة السريحة . يضطر الباعة إلى الشراء بأسعار ، يحددها الحاج قنديل ..

لزم الراكشى موضعه بعيداً عن مجلس الحاج ، يتوسل كى يعطيه أكثر من الكمية المحددة ..

ــــ إن عدت بسمكة واحدة دون بيع .. حاسبنى عليها..

وهو يشيح بمبسم الشيشة :

ــــ هل أعطيك من رزق الآخرين ؟..

قال على الراكشى :

ــــ الرزق بالله .. الخير كثير !..

ــــ عندما يتوزع هذا الخير على السماكين .. لن يزيد نصيبك على ماحصلت عليه ..

علا صوته بالانفعال :

ـــ كنت أحصل على نفس الكمية وأنا أب لاثنين .. والآن أنا أب لخمسة ..

صرخ الحاج :

ـــ تخمّس عليّ ؟!..

وضغط على المبسم بعصبية :

ـــ هذه مسئوليتك ..

قيل الكثير عن العمارات التى يملكها الرجل فى الرمل وسموحة ، وشركات نقل القمح من الجمرك إلى شون الورديان ، والصفقات المشبوهة فى عرض البحر ، يتسلل الرجال ـــ ليلاً ـــ للعودة بها ..

امتلك الحاج قنديل الحلقة .. فهل يمتلك البحر أيضاً ؟!.

يتفق الجميع أن من يرضى عنه الحاج قنديل ، يدخل الحلقة ، يشترى ويبيع . من يغضب عليه ، لايدخل الحلقة ، ويواجه المضايقات خارجها ..

كان يحرص على صداقة المعلمين . لايأذن للخلافات أن تنفذ بينهم . إذا أفلح الصيادون والسماكون فى تفتيت وحدتهم ، يدفع الجميع الثمن . وإذا عين مأمور لقسم الجمرك

، أو مفتش جديد للمباحث ، أو مأمور لنقطة الأنفوشى ، بادر بزيارته . لايحمل هدايا ، وإن لمّح بما يأذن بانفراجة الباب . إذا ظل الباب موصداً ، اكتفى بالزيارة ، وعبارات المجاملة ، والتحدث فيما يهبه الرجل انتباهه . حين تتبدى انفراجة الباب ، يبعث صبيانه بالهدايا لتوسيعها . وكان يعرف رجال المباحث معرفة شخصية . حتى المخبرين كان يعرف أسماءهم ، وأين يقيمون ، وجلس مع غالبيتهم ، وسهر ، وأكل ، وشرب . وقيل إنه خصص لمخبرى المباحث رواتب شهرية لقاء إبلاغهم له بتحركات حملات الضبط قبل بدئها . وإذا دخل مكتب مسئول ، صحب معه من يقدمه : الحاج قنديل . تتغير الاستجابة ــــ بالتقديم ــــ فى عينى المسئول وتصرفاته ..

هم الراكشى بترك الحلقة ، فلا يواجه الحاج قنديل فى لحظة غضب ..

لحقه صوت الحاج :

ــــ ماذا تريد ياراكشى ؟..

لم يعد أمامه إلاّ أن يشرح الحال ، ويطلب النصفة ..

ــــ خدامك ياحاج ..

أشاح الحاج بمبسم الشيشة :

ـــــ ثم ماذا ؟.. ماذا تريد ؟..

وهو يظهر المسكنة :

ـــــ يرفض الجميع تقديم مامأسرح به ..

ـــــ وأنا أيضاً أرفض ..

ـــــ لماذا ؟..

تقلقل الحاج فى جلسته :

ـــــ لأنى ظالم .. أليس هذا ماتدعيه ؟!..

اختار للرجل ـــــ فى نفسه ، وبين الصيادين ـــــ اسماً ثانياً ، يعبر عن نظرته إليه ، ومايحس به نحوه . قنديل البحر . لدغته بالسم الهارى ..

فى نبرة متذللة :

ـــــ أنا لم أجلس فى القهوة منذ أشهر ..

أطلق الحاج شخرة من قاع حلقه :

ـــــ صار الشيطان درويشاً !..

وعلا صوته :

ـــــ حتى لو توسط شيخك يوسف بدوى .. لن تأخذ بضاعتى ..

بدل الانفعال ملامح الراكشى . ضايقه ذكر اسم شيخه فيما لاشأن له به . زفر فى نفاد صبر :

ـــــ هذا حرام !

رمقه بنظرة مشتعلة :

ـــــ هل أخذت مالك ؟.. بضاعتى أبيعها لمن أريد !..

ودس المبسم فى شفتيه .

يامريدى .. لاتضق بى !

قال أبو العباس : من أحب الله ، وأحب الله فقط ، تمت ولايته . والمحب على الحقيقة لاسلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولامشيئة له غير مشيئته ، فإن من ثبتت ولايته من الله لايكره الموت . وقال : من أجل مواهب الله تعالى ، الرضا بمواقع القضاء ، والصبر عند نزول البلاء ، والتوكل على الله تعالى عند الشدائد ، والرجوع إليه عند النوائب . فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة ، ومتابعة السنة ، والاقتداء بالأئمة ، فقد صحت ولايته لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين . وقال : لو كشف عن نور المؤمن العاصى ، لطبق مابين السماء والأرض . فما ظنك بنور المؤمن المطيع ؟!

قال على الراكشى :

ــــ أنا عائد من الحلقة ..

أردف للتساؤل فى عينى الشيخ يوسف بدوى :

ــــ كنت أحاسب على شروة بعتها لحسابى ..

قال يوسف بدوى :

ــــ على التلميذ ألاّ يشتغل بشئ سوى الحق سبحانه ، حتى ينفعه التعليم ..

واتته جرأة :

ـــــ ومن أين أطعم أولادى ؟..

قال الشيخ :

ـــــ لاأدعوك إلى هجر لقمة العيش .. ولكن يجب أن تمشى فى طريق الله معظم خطواتك ..

أذهله التغيّر فى ملامح الرجل ، وفى نبرة صوته ،وطريقة كلامه . لم يعد ذلك الأب الذى يلقى برأسه على صدره . يسأله ، ويناقشه ، ويشكو له همه . استحال هماً يطل فى العينين ، وفى تقلصات الوجه ، وارتعاشة اليدين ، والنبرة الباترة ..

ثم وهو يضرب الهواء بجانب يده :

ـــــ أذكر ربك امتثالاً .. لاالقصد دنيا !..

وعلا صوته بنبرة محذرة :

ـــــ إذا كان قلبك جنباً ، فانصرف !..

تساءل بالدهشة :

ـــــ هل يجنب القلب ؟..

قال الشيخ :

ـــــ جنابة القلب غفلته عن خالقه ..

الحاج قنديل يحصى عليه أنفاسه فى قهوة الزردونى . عيونه وآذانه ينقلون إليه مايقوله . هل يكمل الشيخ الدائرة ، فيحصى أنفاسه فى الحياة كلها ؟!..

اشار الشيخ إلى صفى الرجال المنتظمين ..

بدأ الذكر بقرار مطمئن ، هادئ . هسيس النخيل ، أو تلاحق أمواج البحر ساعات هدوئه . ثم انتقلت الحركة إلى مقامات أخرى ، أكثر ارتفاعاً ، حتى مقام الأوج . حمى الوطيس ، وبلغت حركة الذكر غايتها من القوة والسيطرة على الذاكرين . علت صيحات الوجد ، وصرخات التعبير عن الأحوال ..

تناغم صوت الشيخ بالصيحة الممدودة :

ـــ الله !..

سكنت الحركة ، وتمطى الهدوء ، واستقر الذاكرون ـــ لدقائق ـــ استعداداً لطبقة ثانية من الهتاف ، وترديد لفظ الجلالة ..

قال الشيخ :

ـــ أنت تمتثل لرأيى فى الظاهر.. وهذا لايكفى ..

استطرد للعجب فى وجهه :

ــــ المهم ألاّ تعترض فى الباطن ..

وتأمله بنظرة مشفقة :

ــــ أنت لن تستطيع أن تدرك دقائق الطريقة إلاّ بصحبة شيخ واحد ..

قال على الراكشى :

ــــ ولكن سيدى الشاذلى أكد ضرورة أن يأخذ المريد من كل شيخ يقابله ..

أشاح بيده فى استياء :

ــــ من قال إنه أكد ذلك ؟.. الشيخ الواحد للمريد أعون له على سلوك الطريق ..

وفاجأه بالقول :

ــــ عرفت أنك تتردد على دروس المغرب فى أبو العباس ..

قال الراكشى :

ــــ هى محاولة للاستزادة من العلم ..

لم يخف الشيخ غضبه :

ــــ من آداب المريد ألاّ يحضر مجلساً لغير شيخه ، ولايسمع من سواه ..

وتقلصت أصابعه على المسبحة :

ــــ المريد الذى يذهب إلى غير أستاذه ، كالابن الذى يذهب إلى غير أبيه ..

وعلا صوته :

ــــ حتى زيارتك لأولياء الله ، لاتكون إلاّ بإذن من شيخك..

عاب ــــ للمرة الأولى أمامه ــــ على الشيخ طه مسعود :

ــــ إذا أخذ العالم شيئاً من الدنيا ، نقصت درجته عند الله ، وإن كان كريماً على الله . وشيخنا شغل بحظه وحظ غيره من الدنيا ، فهو لايشبع !..

وعاب على الإمام اشتغاله بجمع الدنيا ، وتزيين الملابس ، وتكبير العمة ، وتحسين المأكل والمسكن والمركب ..

وخالط صوته عصبية :

ــــ هذا رجل تعبده فى الظاهر فقط ..

كان قد تعلم آداب المريد مع شيخه : لايأكل معه ، ولاينام معه ، ولايضحك بين يديه ، ولايرفع صوته عليه ، ولاينام فى فراشه ، أو قريباً منه ، ولايجلس فى موضع جلوسه ، ولايتكلم فى مجلسه ، ولو كلمة واحدة ، حتى

يستدعيه للكلام ، ويلزم الوقار والأدب فى مكانه . عرف أن عليه ألاّ يزور ولياً ولاصالحاً من الحى ، ولامن الإسكندرية كلها ، إلاّ بإذنه ، ولايشارك فى ذكر لايكون هو شيخه ، ولايستمع إلى درس لايكون هو صاحبه ، ولاإلى كلمات ـــ مهما بدت مهمة ـــ إلاّ إذا صدرت من الشيخ ، ومن فيض علمه ..

أنساه ماقرأه ، وتعلمه ، معاملة الشيخ لمريديه . يخاطبهم كأصدقاء ، يستمع منهم ، ويناقش مشكلاتهم الشخصية . وأذن بأن يتصلوا ببعض فى غير حضوره ، يتزاورون ، ويتبادلون الكتب ، ويتناقشون فيما قرأوا . وربما رافق أحدهم أخاه فى تمشية على الكورنيش ..

منذ أعلن توبته ، اقتلع كل جذور التعلق بما سوى الله . لم يشرئب للدنيا ، ولاجنح نحوها ، وصرف خاطره عن الاشتغال بالخلق . ملك نفسه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب . أعد قلبه لحقائق الطريق التالية . اجتهد فى ترحيل القلب من سلاسل شهواته ، تطهيره من أخطائه وذنوبه وغفلته عن ربه ، وحفظ الحواس ، وصيانتها من الشوائب الظاهرة ، والأمراض الباطنة ، وتطهير الجوارح ، وتصفية

القلب ، ومسك اللسان . فارق مرتادى حمام الأنفوشى ، والجالسين على قهوة الزردونى ، أو قهوة مخيمخ ، حتى لايشوشوا على صحة عزمه . أصم أذنيه عن كل ماحوله ، وانطلق ـــ بأفكاره وتصوراته ـــ فى الآفاق التى لانهاية لها . استعد للموت مستغفراً من ذنوبه ، مجتهداً فى طاعة الله . وكان يأخذ نفسه بالمحاسبة والمراقبة ، فعرف المخاوف والمهالك والحدود ..

أصبح الشيخ فى خاطره ـــ بتقضى الأشهر ـــ قوة تهيمن على توجيهه وهدايته ، كأنه قوة عليا ، لها سيطرة على إرادته . كان ـــ فى لحظات انفعاله ـــ يرطن بلغة ، أو لهجة ، لايفهمها محدثه . هى خليط من الحروف المتداخلة ، لاتعبر عن معنى محدد ، وإن تبدى فى زعيقه ، وتغير لونه ، وتواصل الكلمات ، أنه قد غادر مألوف هدوئه ، واحتضن الغضب ..

فاجأه الشيخ بالقول :

ـــ هل أنت على ثقة من صحة مبايعتك ؟

وأردف فى لهجة محذرة :

ـــــ أنت حين بايعتنى شيخاً لك ، بدأت السير فى طريق الوراثة .. وهى الطريق الوحيدة إلى الفردوس ..

وتلون صوت الشيخ بإشفاق :

ـــــ لاتضايقك خشونتى .. فما ربى أقطابنا ومشايخنا الكبار إلاّ الخشن ..

قال على الراكشى :

ـــــ أية خشونة لن تصل إلى قسوة عبارات الحاج قنديل وتصرفاته !..

وقال للشيخ :

ـــــ كنت قد سألت عن حكم الذى يحارب الآخرين فى أرزاقهم ..

قال الشيخ :

ـــــ لاتصر على طلب الجواب .. اسأل واسكت !..

ـــــ تهمنى الإجابة ..

وشى صوت الشيخ بضيق :

ـــــ من حق شيخك أن يجيب وقتما شاء ، أو لايجيب..

تيقظت فى نفسه الأسئلة . راعه قول الشيخ لما شكا له قسوة الحاج قنديل :

ـــ لاتشك لى .. أنت إذا شكوت لأحد ماحل بك ، فكأنك تشكو الله ، ولاترضى بأحكامه ..

استطرد كالمتنبه :

ـــ الحزن ـــ إن كنت لاتعلم ـــ هو من مقامات التطهير ، ومدرج من مدارج الوصول !..

متى يتحقق مايريده من علم الشيخ وأدبه ؟.. يفارق الشيخ ، واسطة الفيض ، وواسطة المدد . يسلك طريقه الخاص . يستغنى بربه عن الشيخ . يبدأ سيره ـــ بمفرده ـــ فى الطريق الصوفى . يعرج إلى المقامات العالية . يتقرب إلى الذات الإلهية بمجاهدات خاصة ، تتعلق همته وقصده بذات الله ، يهيم بجلاله . يهديه الله إلى سبيله الخاص . يفهم دقائق الأسرار . يمتلئ بالأنوار والمواهب . يتقلب فى أحوال الحب ، والوله ، والوجد ، والهيام ، والشرود ، والذهول ، والغيبة عن الوجود . يكثرمن الذكر حتى يحصل له الأنس ، فلا يغفل قلبه ، ويشهد الله دوماً بقلبه ، أو يرى نفسه فى حضرته . التجلى الإلهى فى الأوتاد والنقباء

والأبدال والأقطاب . يتطلع إلى سحائب الرحمة ، ورياح الهداية ، وأرض النفوس الطيبة ، وأدوية القلوب المنورة ، وخلجان الأرواح المطهرة . يصبح من الصابرين ، الصادقين ، القانتين ، المستغفرين بالأسحار ، ومن خواص أهل الحضرة ، اهل المشاهدة والمكاشفة ..

الترقى يأتى بصعود درجات القرب ، إعطاء الظهر لدركات البعد والرسوم الخلفية . تشرق عليه ــــ فى النهاية ــــ فيوض الأسماء الإلهية ، والصفات الحسنى ، ويندرج الأزل فى الأبد ، فلا صباح ولامساء ، ولاماضى ولاحاضر ولامستقبل . يبين ماكان مخفياً ومختلطاً من أهل الزمان ..

متى يُحَزَّم بحزام المشيخة ؟!

المرأة الجميلة ذات الذيل المتهدل

" لاتدع المرأة ذات الذيل المتهدل تخدع حواسك . أطلق شراعك مبتعداً عن سطوتها . إنها خادمة الموت . دع إرادتك تتغلب على عواطفك . وهكذا تتغلب على الهلاك "

كليمنت السكندرى

أذهله التغير الذى حدث فى قلعة قايتباى . دخلها ـــــ من قبل ـــــ وارتقى سلالمها الضيقة ، وأطل من المزاغل والنوافذ الحجرية . تصطخب الأمواج تحتها ، تصطدم بالصخور . بدت مظلمة ، موحشة ، ومتهدمة . أبواب السرداب مفتوحة ، فلا يدرى إلى أين تنتهى ..

أطل على المدافع الصدئة . بجوارها كرات من الحديد ، ملقاة بلا انتظام . تسلق مئات السلمات . وصل إلى آخر سلمة . تنتهى إلى شرفة حجرية ، تطل على البحر . الأمواج ـــــ من تحتها ـــــ ترتطم بالصخور ، أسفل القلعة . النوة

قاسية ، والريح قوية ـــــ احتضن صدره بساعديه ، اتقاء برودتها الصاخبة ـــــ كنست قاع البحر ، ومخلفات الشاطئ ، فاستحالت الأمواج سوداء كالطين ، والمياه تتدفق من الفتحات والمزاغل ، فتملأ الغرف ..

في طفولته ، كان يرفض إلحاح الأولاد في الدخول إليها . يغريهم بابها الكبير ، المفتوح ، وساحتها ، والسراديب المظلمة . يتردد ، ويرفض . يتذكر قصص الأشباح والعفاريت التى لاتفارق القلعة . تتخذها مساكن وملاعب ، وتؤذى من يجاسر بالدخول . ربما أودعته أذاها ، فيعانى حتى الموت ..

شغلته حكاية الجد السخاوى عن عروس بحر ، ظهرت ـــــ واختفت ـــــ فجأة . إنشقت المياه عن جسمها البشرى ، السمكى ، شعرها المنسدل على الكتفين ، صبغته الشمس بلون ذهبى . ابتسمت ، ولوّحت بيدها . غاصت إلى الأعماق . جرى الخير فى ذلك اليوم بما لم يصادفه من قبل . أكد الجد السخاوى أن قلب عروس البحر يخفق للرجال . يستهويها صورة الرجل ، وصوته ، وحديثه .. لكنها تضاجع

الريح ، ولاتلد إلاّ الإناث ، وطعامها ثمار بعينها ، تنبت حيث تعيش ..

قال الجد السخاوى :

ـــ من تظهر له .. لابد أن يكون قد فعل الخير فى حياته ..

استطرد وهو يزيح بقايا زعانف علقت بظهر يده :

ـــ إذا اطمأنت إلى مافعله من عمل طيب ، تأخذه إلى قاع البحر . تدله على مافيه من ذهب وفضة ولؤلؤ ومعادن نفيسة ..

ثم قال فى لهجة تحذير :

ـــ ليس كل عرائس البحر يضمرن نيات حسنة .. حتى التى قد تسحرك بجمال جسدها ، وبغنائها ، ربما تدفعك إلى مصير مؤلم . تخضع لتأثير جمالها ، وعذوبة صوتها ، فتهمل قيادة قاربك ، واتجاهه ، حتى يرتطم بالصخور ..

سأل حمودة هلول :

ـــ هل يوجد رجال فى دنيا عروس البحر ؟..

قال الجد السخاوى :

ـــــ لكل مخلوق زوجان .. ذكر وأنثى .. ماعدا عرائس البحر ..

قال محيى قبطان :

ـــــ قال صيادون وبحارة إنهم شاهدوا ذكر البحر ..

قال الجد السخاوى :

ـــــ عروس البحر وحدها ، هى التى ظهرت ـــــ وتظهر ـــــ للناس . تجتذبك بجمال صوتها ، فلا ترى الصخور حتى ترتطم بها ، فتأخذك إلى الأعماق ..

وهز رأسه مؤكداً :

ـــــ نعم .. بعض العرائس لاأكثر من قاتلات ، عملهن الوحيد إغراق الرجال ، وسحب أجسامهم إلى القاع ..

شغله الأمر ..

أعاد مارواه الجد السخاوى على عم محجوب ، حارس حمام الأنفوشى ..

قال عم محجوب بلهجة مستخفّة :

ـــــ مصيبتكم أنكم تصدقوا السخاوى فى كل مايرويه..

أردف فى ضيق :

ـــــ ماأعرفه من كثيرين أن العرائس ذكر وأنثى .. وأن الأنثى ربما تأخذ إنسياً إلى قاع البحر ، وتتزوجه ..

ثم فى لهفة :

ـــــ وتعطيه من كنوز البحر ؟..

قال عم محجوب ، وهو يجرى باصبعين نحيلين على ذقنه البيضاء ، الكثة :

ـــــ لابد أولاً أن تنجب منه البنين والبنات .. ثم تأذن له فى العودة ..

فى الأيام التالية ، ظل على مقربة من الشاطئ . إذا خفتت الأصوات ، وحاصرته الوحدة ، جدف بساعده ، فلايبتعد عن الشاطئ . وإذا كان بمفرده ، غادر الماء بلا تردد . ثم ملك عليه الأمر تفكيره . ناوشه فى الصحوة والنوم . يبدو منفذاً للنزول إلى البحر. لايقضى ليلة ، أو ليلتين ، وإنما يغيب فى أعماقه العمر كله ..

قيل إن عروس البحر تقطن الجزيرة البعيدة . تستحم فى الشمس ، تسدل شعرها ، تمشطه . يتألق ثدياها العاريان ، ولعينيها بريق يعمى من يطيل النظر إليهما . نصفها العلوى لامرأة . النصف السفلى ، من الأرداف حتى نهاية

الجسد ، لسمكة لها ذيل . تخرج من الماء إلى منتصف جسمها . تنظر يميناً وشمالاً ، وإلى فوق ، وفى تكسّرات الأمواج . إذا أحست باقتراب إنسان ، غطست فى البحر ، ومن المستحيل صيدها بالحيلة . وإذا حاول أحد أن يقترب بمركبه من الحظيرة ، أثارت الرياح والعواصف والأمواج ، فأبعدتها عن طريق الجزيرة . الجزيرة عالمها الخاص . لايصل إليها الناس . من يضل طريقه بالقرب منها ، تناوشته الأسماك الهائلة فى مياهها . ربما حملته إلى داخلها ، فيأكله ناسها ، لايفرقون ـــ فى طعامهم ـــ بين إنس وحيوان ..

أبرق الرعد ، وصفّرت الريح ، وانهمر المطر كالسيل . عاد برأسه إلى مدخل القلعة . عروس الخير تظهر فى أوقات العاصفة . تحمى نفسها من أطماع البشر بالعواصف الشديدة المصاحبة لها . اختار نوة " العوة " للتردد على القلعة . يطيل الجلوس لساعات ، حتى تجهده البرودة ، أو التعب ..

لمح ضوءاً ، فانتبه ..

قال الجد السخاوى :

ـــ إنها تطفو وتغطس فى ثانية ، أو أقل ..

تحدث عم محجوب عن حودة التيتى . عشقته جنية من البحر ، عروس لها ذيل . لم يهدأ لها بال حتى أغرته على البناء بها ، والغوص معها فى أعماق البحر . أنجبا العديد من الأولاد والبنات ، وإن لم يعد إلى الأنفوشى ـــــ ولو للزيارة ـــــ من يومها . صار أبناؤه من أبناء البحر ..

وروى عم محجوب عن سباعى سويلم . سحبت شبكته عروس البحر ، فاجتذبته المرأة ذات الذيل . ظل فى أعماق البحر أعواماً طويلة . ثم عاد إلى الأنفوشى فى ليلة شتاء ، أيام كان سلامة حجازى يؤذن للفجر فى أبو العباس ، محملاً بأثقال من الذهب والجواهر . ابتنى قصراً فى أرض خلاء بالقرب من الحجارى ـــــ زال فيما بعد ، وأقيمت مكانه مدرسة ابتدائية وزاوية فى وكالة الليمون ـــــ تهدمت فيما بعد ، ومازال خرابة ـــــ وأمر بتوزيع الصدقات والزكاة على أبناء بحرى من المصريين . لزم قصره ، فلم يغادره ، وإن خصص قاعة فسيحة فى الطابق الأول ، لاستقبال ذوى الحاجات ، حتى أدركه السر الإلهى ، فى العشرة الأواخر من رمضان . سار فى جنازته خلق كثير . صلوا على

جثمانه فى أبو العباس ، وضاق الميدان الواسع ـــــ أمام الجامع ـــــ بمن قدموا لوداعه ..

أعاد الحكاية :

ـــــ هل صحيح مايقال إن عروس البحر غابت بأحد الصيادين ، وتزوجته فى أعماق البحر ..

قال قاسم الغرياني :

ـــــ سمعنا الكثير .. حتى المرحوم جمعة العدوى قيل إنه تزوج عروس بحر .. واستقرا فى الأعماق ..

وسرح فى تذكر :

ـــــ حسان عبد الدايم شاهدها تنفض الماء من حولها ، وتبدت مجلوّة ساحرة على جانب البلانس .. افتتن بها جمعة العدوى ، وقذف بنفسه وراءها ..

وسأل ، يطمئن على ماصدقه بالفعل :

ـــــ معقول أن عروس البحر تنجب أطفالاً ؟..

قال الجد السخاوى :

ـــــ ألم تولد نفسها .. ألم تكن طفلة ؟..

هل تخرج له من البحر حورية ، عروس ؟.. تأخذه ، تهبط به إلى الأعماق . يتزوجان ، ينجبان البنين والبنات .

يعود ـــــ بعد أعوام ـــــ إلى الشاطئ ، محملاً بخيرات الأعماق من نفائس وجواهر ، ومالايخطر ببال ..

لاخشية من الغوص فى الماء . العروس تضع كحلاً سحرياً فى عينيه ، فيستطيع ـــــ بحول الله ـــــ أن يعيش كالأسماك فى أعماق البحر ..

استهوته حكايات البلاد المسحورة من الحجر والنحاس ومدن المغناطيس ، والأبواب المرصعة بالذهب والفضة ، والقاعات المفروشة ، والجدران المنقوشة ، والأسقف المعقودة ، وقوائم البيوت من الياقوت الأحمر واللؤلؤ والزبرجد الأحمر . جدرانها طوبة من ذهب ، وطوبة من فضة . والأنهار تجرى فى قنوات مرصعة بالدرر والجواهر الثمينة ، تحيط بها غابات من المسك والعنبر والكافور ، وكل الأشياء ـــــ ماعدا الطعام ـــــ من الذهب والياقوت والزمرد والكهرمان . لاتزاحم على العيش والكسب ، ولاتفاوت بين كبير وصغير ، ولاحاكم ومحكوم . كل رجالها طوال القدود ، مسدلة شعورهم إلى مابعد الكتفين ، نساؤها فائقات الحسن والجمال . صلاتهم ليست كالصلاة التى نعرفها ، فلا تكبير

ولاركوع ولاسجود . إنما هى ألحان وغناء تصفيق بالأكف ، وأصوات متناغمة كأنها السحر ..

كان يحرص على التوضؤ ، وأداء ركعتين ، قبل أن يقف فى موضعه . فالماء طاهر ، لايقبل إلاّ النفوس الطاهرة..

ترامت إليه أصوات غريبة . كأنها النداء البعيد ، أو الاستغاثة . واختلطت فى أنفه روائح اليود والأعشاب والياسمين والقرنفل والقرفة والزنجبيل ..

ميز فى النداء اسمه ..

غالب ارتجافة للنداء المفاجئ . ثم أنصت من جديد ..

علا الصوت ، النداء ، بوضوح أكثر . عرف أنه صوتها ، وإن لم يكن قد رآها ، ولااستمع إليها من قبل ..

تلفت حوله ، يبحث عن مصدر النداء ..

سكنت الأصوات ، فيما عدا ارتطام الأمواج بجدران القلعة ، وصوصوة فأر يتقافز بين أحجار الشاطئ ..

غلبه اليأس من عودة الصوت النداء ، فعاد إلى البيت ، وصورتها التى رسمها خياله تملأ نفسه ..

***

صحت السيالة ـــ ذات صباح ـــ على اختفاء المليجى عطية ..

من أعلن الخبر ؟.. وكيف تبينه ؟.. ومتى حدث ماحدث ؟..

قيل إن عروس البحر أغرقته . أغرته أن يتبعها إلى حيث تعيش تحت الماء . عالم كأنه الجنة ، لن يندم على أنه فارق الأرض من أجله . الحياة سهلة ، والجميع يأكلون من خيرات الأعماق ، دون أن يشقيهم العمل ، وأذية مشايخ الصيادين وعساكر السواحل ، والظروف الصعبة ، والجواهر الغالية بلا قيمة ، لأنها الطريق التى يمشون فيها ، والبيوت التى يسكنونها ، والملل لايعرفونه ، ومجرد الضيق بالآخرين ، أو مضايقتهم ، عقابه الطرد إلى أحد الشواطئ البعيدة . يلاحقه تذكر مافعل ، حتى يدركه الكبر ، أو الموت .

البحـــــــــر

شاط بحذائه الكاوتش زلطة صغيرة . تدحرجت على رصيف الكورنيش ، حتى استقرت فى كومة زبالة . ألقى السلام على العاملين فى ورش المراكب ، واخترق شارع الحجارى ، إلى شارع حافظ باشا ..

واجهه ميدان أبو العباس ، باتساعه وزحامه والباعة السريحة والمستندين إلى الجدران ، والداخلين ، والخارجين ، من الأبواب التى فتحت على آخرها ..

فكر أن يصعد إلى الميضة . يغسل وجهه ، ويتمدد فى الناحية البحرية . آخر مرة ، أيقظه عبد النبى شعرة ، وشتمه . أولى ظهره للجامع ، ومضى ..

لم يكن فى طريقه إلى مكان بالذات ، ولاحتى إلى قهوة الزردونى . لم يعد يتردد عليها منذ اشترط المعلم أحمد الزردونى أن يدفع الحساب القديم ، قبل أن يطلب " مشاريب " جديدة ..

حتى قهوة البحارة بالمنشية ، لم يعد يتردد عليها . الرواد عمال بحر ، أو بحارة ، تركوا العمل فى سفنهم ، أو فصلوا منها لأى سبب . ليسوا جميعاً من الاسكندرية ، ولاحتى من أولاد العرب . الرطانة بلغات ولهجات مختلفة . يأتون لأيام ، ويغيبون لأشهر ، والدفع حالاً . من يعجز ، يدفع له زملاؤه . تتغير السحن بتغير السفن الراحلة والوافدة . ربما طال التردد على القهوة حتى تصل السفينة المطلوبة ..

هز رأسه لكل العروض التى قدمت إليه ، بعيداً عن البحر . حتى العروض التى قبلها ، مالبث أن اعتذر عنها ..

قال لقاسم الغريانى :

ـــ أنا مثل النورس .. أبتعد عن البحر قليلاً .. لكننى لاأبتعد عنه إطلاقاً ..

وعلا صوته بحماسة مفاجئة :

ـــ البحر هو أنا !..

تذكر أنه أصبح مثل النورس ، بالفعل . يكتفى بالتحليق فوق الشاطئ . لايبتعد إلى أكثر من مدى البصر . وهو قد اكتفى بالوقوف على الشاطئ ، وإن ركب فلوكة ، فهو

لايجدف بها إلى أبعد من الجزيرة ، فى نهاية الأفق القريب ..

كان يحب التمشى فى الميناء . تمضى قدماه إلى غير هدف . يتنقل بين الحاويات وبلوطات البضائع . يتأمل البواخر الضخمة فى المرساة ، اللون الأخضر الطافى فوق الماء ، أصوات المحركات والروافع وصفير البواخر وصيحات النوارس وهتافات الشياليين ، ينقلون أجولة القمح إلى سيارات النقل ..

حاول أبوه أن يعيده إلى المدرسة ، لكنه كان قد نزل البحر . ركب البلانس واللنش والفلوكة والدنجل ، وغطس ، واصطاد بالسنارة والجرافة والطراحة ، فهرب من المدرسة إلى البحر . راق له العمل فى بلانسات الحاج قنديل ، رحلتين أو ثلاثاً ، ثم غلبه طبعه ، فرد إلى الحاج قنديل شتيمته . ضربه صبيان الحاج ـــ من بينهم أصدقاء له ـــ وطردوه من الحلقة . لم يجد بعدها من يقبله على مركبه . راعوا خاطر الحاج قنديل ..

أعطاه على الراكشى حصيلة صيد السنارة . وضعها فى مشنة ، ووقف مع " الفريشة " ـــ أمام باب الحلقة ـــ

نادى على مالديه بأنه ليس عفشة ولازريعة . قلب صبيان الحاج قنديل فرشته ، وطردوه بعيداً ..

اشتغل ـــ لفترة ـــ رفاصاً . يبحث عن الأشياء التى تسقط من الناس فى مياه البحر . لسعه قنديل البحر . أخذ أياماً حتى شفى . ثم لم يعد إلى وظيفة الرفاص ..

تنقل بين المهن المتصلة بصيد الأسفنج ، حتى تعلمها جيداً . دوس الأسفنج بالأقدام ، أو عصره ، لقتل الحيوان ، وطرد المادة الحية والسوائل اللزجة . تجميعه فى كومات ، وتغطيته بأكياس مبللة . انتظاره حتى يتحلل بأشعة الشمس . غسله بمياه البحر . حمله ـــ مغسولاً ـــ إلى البلانس الأم . يواصل ـــ فوقه ـــ عملية التنظيف ، فيخلو الأسفنج من الحصى والرمال والأصداف والأعشاب . قص الجذور والتفريعات والزوائد . صبغ الأسفنج باللون البنى ..

حين تحدث الناس فى الأنفوشى عن قيام بعثة آثار أجنبية باستخراج أجزاء من تماثيل ، وقطع من سفن رومانية قديمة ، قبالة قلعة قايتباى ، قرر أن يتعلم الغوص ، ليبحث عن آثار جديدة فى المنطقة . وعاش بأمل العثور على حطام سفينة غارقة . اشترى القناع والزعانف وأنبوبة التنفس .

أهمل القسوة فى المعاملة كى يتعلم . تركوه بلا تعليم ، حتى يخطئ ، فلا يعود إلى الغوص ، ويخلو لليونانيين جو الصيد . ظلت الأدوات فى موضعها ، فنسى الأمر كله ..

دخل قهوة مخيمخ ـــ ذات أصيل ـــ خواجة ، فى نحو الخمسين . اكتفى بالنظر إلى الرجال الجالسين ، وهمس بما لم يتبينه أحد ، فى أذن صاحبه . ابن عرب ، يرتدى بدلة كاملة ، وإن بدت عليه رقة الحال ..

سأل الخواجة كل واحد عن تخصصه ..

اختار ستة ، وربما سبعة ..

قال مختار زعبلّة :

ـــ أى حاجة ..

قال المرافق ، دون أن يعطى أذنه للخواجة :

ـــ فهلوة المصريين .. أى حاجة ..

أضاف وهو يتجه إلى داخل القهوة :

ـــ نحن نطلب مهناً محددة ..

تم الأمر فى بساطة لم يتوقعها . قدم نفسه للخواجة ، وعرض خدماته . تأمله طويلاً ، وهز رأسه بالموافقة ..

بدأ مساحاً ، يمسح أرضية الباخرة . ينظف الغرف والقمرات ودورات المياه . لم يصدق البحارة أنه ــــ فى رحلته الأولى ــــ لم يفرغ مابجوفه . لم يؤثر فيه دوار البحر ، ولاظهر عليه أنه شغل به . ثم لزم الاسكندرية عندما مرت الباخرة عليها . جرب العمل فى أكثر من مهنة ، فلم يوفق . عاد إلى البحر . عمل فى قسم الغلايات بباخرة يونانية أيضاً . كأنما اليونانيون قدره . تنقل بين المهن المختلفة : التبريد ، النجارة ، التزييت ، التشحيم ، الميكانيكا ، الكهرباء ، الترشيم ، الخدمة فى المطبخ ، تقديم الطعام . وحين تلعب الأنواء بالباخرة ، ويبين الخوف فى الملامح . يتذكر مارواه الجد السخاوى عن الباخرة التى هبطت إلى أعماق البحر ، أو قذفت بها الأمواج إلى جزر بعيدة ، حيث الكنوز بلا حصر ، من الذهب والفضة والأحجار الكريمة . يتمنى أن تعيد الأنواء حكايات الجد السخاوى . لايصارح الرجال بما فى نفسه ، وهم يعانون النجاة من حصار العاصفة ..

سقط ــــ يوماً ــــ فى منطقة البريدج ، المنطقة الأمامية قرب قمرة القبطان . لزم الفراش ــــ فى الباخرة ،

وفى البيت ـــ ثلاثة أشهر ، حتى استعاد عافيته ، وإن لم يغب الألم ـــ فيما بعد ـــ عن أسفل ظهره ..

تردد على المستشفى الأميرى ، وعلى عيادات الأطباء ، وجرب وصفات شعبية ، أشار بها الجد السخاوى والحاج محمد الحلاق ، لكن الألم ظل يناوشه ، فهو لايقوى على الوقوف ، أو الجلوس ، ويظل غالب وقته ماشياً ..

وضع أمام دكان عزت باسين ، تاجر المنيفاتورة بشارع الميدان ، فاترينة صغيرة ، متساوية الأضلاع . خلف فاترينة الزجاج صفوف من البسكويت والشيكولاتة وعلب السجاير . مهنته الحقيقية كانت تغيير العملات الأجنبية للبحارة ، القادمين على البواخر الأجنبية . سحن مختلفة ، وعملات . يجيد تبين الفارق بين كل عملة أخرى . يندلق البحارة والسياح من باب رقم ٦ إلى قلب المدينة ، يعرضون استبدال عملات ، يعرف بعضها ، فيسهل استبدالها ، أو يراجع أسعار العملات فى جريدة البصير . مع أنه لايعرف القراءة والكتابة ، فإنه يجيد التحدث بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية . تعلمها من اختلاطه بالجاليات الأجنبية فى البحر ، وداخل المدينة ، وبالبحارة الذين تقذف بهم

البواخر الأجنبية فى الميناء ، وإن كان لايعرف من بلاد العالم سوى انجلترا التى تحتلنا قواتها ، واليمن التى يأتى منها البن ..

شارك فىالسرقة من لوريات الجيش الإنجليزى ، فى سيرها بشوارع بحرى ، ومن البضائع المرصوصة فى الميناء . يقذف بالمخطاف داخل البلوط . يجذبه بسرعة ، بشدّة ، يتمزّق ، وتتناثر البضائع . تتخطفها أيدى الرجال قبل أن يفطن الحراس . يكرر العمل نفسه فى بلوط آخر . فى مغيب النهار ، يتقاسم الرجال حصيلة ماجمعوه ..

قبض عليه ـــ ذات ظهر ـــ عساكر الميناء . اقتادوه إلى قسم الجمرك . قضى ليلتين ، حتى توسط له حمادة بك ، فغادر القسم ، وإن لم يعد مأذوناً له بدخول الدائرة الجمركية ..

عايره قاسم الغريانى بأنه يستمع من ثروت زلابية ، ومن بحارة البواخر التجارية إلى حكايات البحر . يجلس فى القهوة ، يسند ظهره بيده ، ويرويها ، ينسبها لنفسه . أهمل المعايرة ، وتواصلت أحاديثه فى البحر والمراكب والبلانسات والعاصفة والنوة والأسماك والمدن البعيدة . صداقة البحر

ليست ككل الصداقات . من يعمل فى البحر ، يتسرب حبه إلى دمه . لايقوى على الابتعاد عنه . يظل فى خاطره حتى يعود إليه ..

قال :

ـــ إذا خرجت السمكة من الماء .. ماذا يحدث لها ؟..

قال حمودة هلول :

ـــ تموت ..

قال مختار زعبلّة :

ـــ هكذا أنا .. ابتعادى عن البحر معناه الموت !..

قال محيى قبطان :

ـــ لكنك لم تمت ..

قال مختار زعبلة :

ـــ هذا مايبدو لك ..

قال قاسم الغريانى :

ـــ وأنا أسأل : ماسر تلك الرائحة المقبضة ؟!..

فوت مختار المعنى :

ـــــ أنت فى البحر سيد نفسك .. حر نفسك .. لاتتعى هم الحاج قنديل ، ولامشايخ الصيادين ، ولاالحكومة نفسها ..

كان ينزل البحر فى الشتاء . لاأحد يجازف بنفسه فى تلك الأيام . يقل عرض السمك ، فتزيد أسعاره . يخوض المخاطر ، ويعود بالسمك الغالى . سماه الجد السخاوى كلب البحر ، فلم تكن تشغله الأنواء ، حتى التى تقف بالسفن خارج البوغاز ..

التقى بمحمود عباس الخوالقة أمام مطحن شيمى بك ..

دعاه إلى حفلة العاشرة صباحاً فى سينما الأنفوشى . تابع المشاهد بلا اهتمام ، فلم يأخذ باله من انتهاء الفيلم ، حتى نبهه محمود ..

سارا إلى نهاية الحجارى ، ثم فارقه بلا هدف ..

الشوارع الضيقة ، المليئة بالأوساخ . البيوت المتلاصقة ، ذات الأبواب التى تفوح منها رائحة البول . السلالم المتآكلة ، المظلمة . الشرفات المتقابلة تكاد تتماس . يسقط عليها ظل البيوت أغلب النهار ، ماعدا ساعة الظهيرة ، عندما تتوسط الشمس النهار ..

انحنى على قطعة خبز بجوار الرصيف . قربها من شفتيه . قبلها ، وأعادها لصق الرصيف تماماً ، فلا تدوسها قدم ..

اقتحمت أنفه رائحة بن محترق . تلفت ـــ بتلقائية ـــ بحثاً عن المطحنة القريبة ..

غاب عن باله العشرات القادمون من الناحية الخلفية للمرسى أبو العباس ، الموازينى والحجارى وابو وردة وشارع الميدان . غالبيتهم يرتدون البنطلونات والقمصان ، والأحذية أيضاً ، وإن تناثر بينهم من يرتدون الجلابيب وحفاة الأقدام . الشاب الذى حملوه على أكتافهم يهتف ، ويرددون وراءه ، ينفى أن يكونوا من الطرق الصوفية ، لابيارق ولاأعلام ولاألعاب حواة ولاأناشيد . يبدو تمازج الأصوات ـــ فى لحظة واحدة ـــ كأنه الرعد ..

اقتربوا ..

صرخ الشاب بهتافه ، ورردده المحتشدون حوله ..

عرف مختار انها مظاهرة . ليست غريبة عنه ، ولامفاجئة . يلتقى بها فى شوارع الإسكندرية . عشرات أو مئات . يهتفون ضد الإنجليز والأمريكان والملك والسراى

والزعماء السياسيين . يتابعها ـــ بعين متشوفة ـــ حتى تبتعد . ربما ثارت حولها المناقشات فى قهوة مخيمخ ، أو قهوة الزردونى ..

لم يدر كيف أصبح واحداً من المتظاهرين ، ولامتى بدأ يردد الهتافات وراء الشاب ، لكنه ـــ فى لحظة ما ـــ أحس أنه أصبح واحداً من المتظاهرين . كأنه بدأ معهم ، وينتهى إلى حيث ينتهون . لاصلة له بما قبل ولابعد . جزء من قطعة نسيج يصعب تمزيقها ..

لم يلحظ البداية : من بدأ التحطيم ؟.. لكنه أصبح ـــ وسط المتظاهرين ـــ مثل الموجة التالية ، تسبقها موجات ، تليها موجات أخرى ..

انهال الطوب ـــ فجأة ـــ على دكان الشبكشى بشارع الحجارى . حدق تحت قدميه ، والتقط طوبة . انتزع شجرة صغيرة من الأرض وإطارها الحديدى . كسر الفاترينة بضربة واحدة ..

لفه غضب ، فنسى حتى المتظاهرين حوله . لم يعد يشغله الهتافات ، ولاالصخب المتلاغط ، وعصاه تحطم كل ماأمامها . تشتعل فى داخله نيران ، تملى عليه تصرفاته

،فهو لايدرى أين ، ولالماذا ، تتجه عصاه . لم يلحظ حتى الخدوش التى أحدثها فى وجهه وعنقه ويديه ، شظايا الزجاج ..

ـــ بوليس !..

أيقظته الصرخة ..

تهاوت العصا ـــ بتلقائية ـــ من يده ..

بدا اللورى ـــ أول شارع اسماعيل صبرى ـــ محملاً بالعساكر . نزلوا إلى الطريق . أوقفوا الترام ، وشكلوا حائطاً من صفين بين قهوة فاروق وحلوانى " زهرة القرنفل " فى الناحية الأخرى من الشارع . أعطوا ظهورهم للبحر ، وواجهوا المتظاهرين ..

ترددت المظاهرة فى سيرها ، واهتزت الأكتاف بالشاب الذى يهتف ، وخفتت الهتافات ، وتداخلت ، فلم تعبر عن معنى محدد ..

اقترب العساكر . خلفوا شارع التتويج وراءهم ، وتقدموا فى شارع اسماعيل صبرى . تفرقت المظاهرة تماماً ، وأنزل المتظاهرون الشاب . تحولت إلى مايشبه الهمهمات الفردية ، وإن داخلها غضب واضح ..

اندفع العساكر بالعصى ، فتوزع المتظاهرون . اندفعوا إلى البيوت والدكاكين القريبة ، وإلى شوارع فرنسا ورأس التين والبوصيرى وسراى محسن باشا ، والحوارى المتفرعة ..

داخله خوف ، فجرى ..

لم يتنبه إلى قدميه : أين تقودانه ؟..

جرى ، وجرى ، وجرى ، حتى اطمأن إلى غياب المتظاهرين والعساكر . بدت الحياة فى نهاية شارع أبو وردة ، على غير الصورة التى كان فيها ..

هدأت نفسه ، فلم يعد يتلفت وراءه ..

عبر قضبان الترام إلى الكورنيش . نزل إلى شاطئ الأنفوشى . سار فى الرمال ـــ بصعوبة ـــ إلى قارب صغير ، غاب معظمه فى الرمال ، وغطت الطحالب والأعشاب جوانبه ..

صعد فوق القارب ، واستقر فى مجلسه . أسند صدغه إلى قبضة يده . تطلع إلى نورسة حلقت عالياً ، ثم هبطت . حامت فى دائرة فوق المياه ، كأنها ترقب صيداً . ثم انقضت

فى سرعة خاطفة على سمكة تلتقط أكلاً من سطح الماء ، وطارت بعيداً ..

أطال النظر فى نهاية الأفق ..

ارتحـــال

مع أنه كان يعرف بحرى : ميادينه وشوارعه وحاراته وأزقته وبيوته وقهاويه ، وسراى رأس التين وقلعة قايتباى والحلقة والجمرك والميناء والبحر والمساجد والموالد وحلقات الذكر ، فإنه كان قليل التردد على أحياء الاسكندرية الأخرى ..

بدا له سوق الجمعة فى غير الصورة التى رآها فى زيارته الأولى ، منذ سنوات بعيدة . الأثاث القديم ، والملابس المستعملة ، والنداءات ، والمساومات ، والصفقات الهامسة..

تاه فى الزحام الصاخب ..

سأل شيخاً يعرض إبريقاً من الفضة . أفسح لنفسه مكاناً على الرصيف ، بالقرب من المرأة . كانت تعيد ترتيب العدّة على قفص من الجريد . فى حوالى الستين ، بشرة داكنة السمرة ، لها عينان بنيتان تطل منهما طيبة واضحة ، وشفتان ممتلئتان ، يعلوهما شارب خفيف ، وأنف أفطس ، مخزوم بقرط ذهبى مستدير . وصدغان متهدلان ، ترتدى

جلباباً حائل اللون ، تآكل طرفا كميه ، ولفت رأسها بمنديل بأويه ، حوافه من الترتر اللامع ..

أبدى إعجابه للرسومات الموشومة على صدر البحار الأجنبى ، فى جلسته على قهوة مخيمخ ..

قال قاسم الغريانى لنظرته المحدقة :

ـــ أردت أن أرسم سمكتين وثعباناً ، فحذرنى الجد السخاوى .. قال إن الوشم حرام ..

قال مختار زعبلة :

ـــ ولماذا السمكتين والثعبان ؟..

قال الغريانى :

ـــ السمكة دليل الرخاء والخير والذرية الصالحة . أما رسم الثعبان ، فليجنبك الله شروره !..

علا صوت مختار بالدهشة :

ـــ كيف تنجب الذرية الصالحة دون أن تتزوج ؟!..

عرض الأمر على أمين عزب ..

نطقت ملامح الرجل بانزعاج :

ـــ أذكرك بحديث الرسول : لعن الله الواشمات والمستوشحات والمتفلجات الحسن ، المغيّرات خلق الله ..

قال مختار زعبلة :

ـــ أنا رجل يامولانا ، ولست امرأة !..

عرف ـــ للمرة الأولى ـــ موضع الوشامين فى سوق الجمعة . دله قاسم الغريانى ، فلا يسلم جسمه لعابرات الطريق . الثابت فى مكانه تستطيع أن تعود إليه ، وتحاسبه . أما العابر ، فهو قد يؤذيك ، ويختفى ..

قالت المرأة :

ـــ هل تريد عصفورة ؟..

بدا من لهجتها أنها صعيدية ، أو من النوبة . حدجها بنظرة متأملة :

ـــ ماذا تظنيننى ؟

وهى تمسح جبهتها بجانب يدها ، ثم تنتر العرق ، حقيقة أو وهماً :

ـــ تريد نخلة إذن ؟..

كرر الكلمة :

ـــ نخلة ؟..

قالت المرأة :

ـــ إنها تدل على الخصوبة والوفرة ..

لاحظ أنها ضغطت على الحروف الأخيرة فى الكلمات ، كأنها تؤكد المعنى ..

أغمض عينيه ، وهز رأسه :

ــــ قد تصح لفلاح .. وأنا من بحرى ..

ثم وهو يسلمها ساعده :

ــــ إرسمى سمكة ..

علا حاجبا المرأة بالدهشة :

ــــ دع وشم السمكة للنساء ..

ــــ السمكة فأل حسن ..

قالت فى دهشتها :

ــــ لكنها ترمز لكثرة النسل .. وهو ماتطلبه النساء ..

ــــ أنا أحب الحياة فى البحر .. مثل السمك ..

ابتسم لما تذكر ماروا محيى قبطان . طلبت زوجة حمودة هلول الطلاق ليلة زفافها . فاجأها بوشم لاسم فتاة ــــ لاتعرفها ــــ على صدره . أصرت ، فلم تسلمه ساقيها إلاّ بعد أن أزال الإسم من صدره ، ولحق الموضع تشوه ..

تناولت المرأة من الصندوق الخشبى ، فوق القفص ، ثلاث إبر صغيرة ، يشدها إلى بعضها خيط رفيع .. غمست

الإبر الثلاث فى إناء من الكحل الأسود . اختلط به بخار سمن ذائب ، وبخار فتيلة محترقة ..

مسحت بظاهر كفها على ساعده . ثم ضربت الساعد ــــ بسرعة ــــ بالإبر الثلاث ..

ــــ لاتتحرك .. حتى لايفسد الوشم ..

انتزع الكلمات :

ــــ ألم فظيع !..

شوحت بيدها :

ــــ مهارتى يشهد بها الجميع !..

لحقه صوت المرأة وهو ينصرف :

ــــ لا تطمس الجزء الموشوم حتى لايتورم !..

***

قال له الجد السخاوى فى قهوة الزردونى ، وهو يتأمل ساعده الموشوم :

ــــ ماذا فعلت ياحمار ؟..

فى تأمله للوشم :

ــــ حبى للبحر رسمته على ساعدى ..

قال السخاوى :

ـــــ أنت بهذا تغير ماصنعه الله ..

ـــــ هذا مجرد وشم سمكة ..

علا صوت السخاوى بنبرة متوعدة :

ـــــ كل وخزة من هذه الوخزات ، ستكون يوم القيامة مسماراً مثبتاً فى مكان الوشم نفسه !..

الظـــل

مال به الحانطور إلى حلقة السمك . تنبه ـــ قبلها ـــ لاقترابه من المكان المنشود ، بعشرات المراكب الصغيرة فى الميناء الشرقية ، والغزل الملقى على امتداد الشاطئ ، وكومات الفلين ، والأسماك الميتة ، المتناثرة ، والطريق المفضى إلى قلعة قايتباى ومعهد الأحياء المائية ، ونقطة الأنفوشى ..

أهمل الأفكار التى ظلت تناوشه ، منذ واجهته سكينة بالكلمات القاسية . شغله السؤال : ماذا لو لم يعرفنى الرجل؟.

فى اقترابه من حلقة السمك ، هدأ الحانطور من سرعته . ثم توقف تماماً ، قبالة الباب المغلق ..

ثنى إليه الحوذى ملامح متسائلة :

ـــ الشارع متفرع من السيالة ..

ـــ نعم ..

لوح بالكرباج ناحية اليسار :

ـــــ هذا الشارع يؤدى إلى السيالة ..

لم يكد يهبط أرض الطريق ، حتى تماوجت ـــــ فى داخله ـــــ مشاعر مبهمة ، تختلف عن التى أملت عليه قراره ..

غادر البيت فى بولاق الدكرور إلى المصلحة فى الدواوين . لكنه ترك الأوتوبيس فى محطته النهائية بباب الحديد ، واتجه ـــــ منقاداً للفكرة التى التصقت بلحمه ـــــ إلى شباك التذاكر . ألقى بنفسه فى السيل المتدافع داخل القطار . حاول قراءة جريدة . بادل المحيطين به أحاديثهم . تطلع إلى الحقول والسيارات العابرة والمارة . تشاغل ـــــ بعفوية ـــــ بإحصاء أعمدة التليفونات . أغفى قليلاً .. لكن الفكرة عششت فى رأسه . قلب الأمر تماماً ، وتوصل إلى القرار : يذهب إلى الرجل الغائب ، يسأله فى الدعوى الظالمة ـــــ لابد أن تكون كذلك ـــــ يصحب الرجل فى العودة . يعلن أمام سكينة ـــــ والجميع ـــــ سخف الادعاء ، ويواجههم بالحقيقة ..

لما جاوز القطار سيدى جابر ، استدعى إلى الذاكرة صورة الشارع الضيق ، المتعرج . على ناصيته قهوة

صغيرة ، وعلى الناصية المقابلة دكان علافة ، والبيت ذى الطابقين ، والنداءات ، والأحاديث المتلاغطة ، تتصاعد من القهوة ، ومن شارع السيالة ..

حاول أن يضيف إلى الصورة بعض الملامح . ربما تساعده فى الوصول إلى البيت . حاول أن يتذكر الجيران الذين لابد أن يلتقى بهم ، ويعرفهم بنفسه ، ويسألهم عن أبيه .. لكن الأعوام العشرين أحدثت تأثيرها المؤكد ، فلم يرتسم فى الذهن إلاّصورة الرجل وحده ، بقامته الضئيلة ، وخطواته المتطوحة ..

عاوده السؤال فى إلحاح : هل يعرفنى الرجل ؟..

ظل الأمر غائباً عن باله . اعتاد غيابه منذ رفض هجر مهنته ، أو مغادرة الأنفوشى . يذكر زياراته المتباعدة فى طفولته . بكاء أمه الصامت عقب انصرافه . الوجوم الذى يلف أخوته ، نظراتهم ، يطيلون بها التحديق إليه ـــ فسرها ، فيما بعد ، بأنها كانت إشفاقاً على اليتم الذى فاجأه فى حياة أبيه ـــ توزعوا فى وظائف شتى ، وإن جمعتهم الشقة الصغيرة فى بولاق الدكرور . تحددت صورة الأب الغائب فى إطار الذكرى ..

سافر حسنين ــــ يوماً ــــ فى مهمة إلى الإسكندرية . عاد ، فلم يشر إلى أنه التقى بالرجل ، أو حاول لقاءه . بات كل واحد أخاً وأباً وأماً للآخرين ..

حين قذفته سكينة باتهامها ، توارى الغضب فى الذهول ، للهدوء الذى سيطر على الجلسة . إكتفى حسنين بنظرة مؤنبة ، بينما تشاغل طه بالتشديد على مصطفى أن يصغّر لقمته ..

لم يجد صعوبة فى الوصول إلى البيت . خطواته عرفت طريقها ، دون سؤال ..

الظهيرة ..

قطع حوارى خلت ــــ أو كادت ــــ من المارة . القهوة تتمطى فى التثاؤب . الشارع الضيق المتعرج ــــ أكثر ضيقاً من صورة ذاكرته ــــ البيت ذو الطابقين ، الشجرة المتطاولة إلى النافذة الشرقية ، وإن عراها الخريف ..

غالب الارتباك للنظرات المتسائلة ، دون أن يتعرف إليه هؤلاء الذين لم تذهب السنوات الخمسة عشرة بهم من ذاكرته ..

فاجأه باب البيت الموصد ـــ هل خلا من ساكنيه ؟

ـــ فعاد يخطوات متثاقلة ..

قبل أن يجاوز الشارع ، لمح ـــ داخل القهوة ـــ وجهاً مألوفاً . أعاد النظر ، ثم أطال التحديق ..

كأنه كان ينتظره ..

كان يحتسى الشاى ـــ بمفرده ـــ فى ركن القهوة . تبددت مخاوف التوقع لما عبر الرجل المفاجأة ، بنظرة تعرفت إليه حالاً ..

قال عبد الرحمن فى بساطة :

ـــ كيف حالك ياسلامة ؟..

وهو يسلم جسده المتعب إلى الكرسى المجاور :

ـــ الحمد لله !..

تأمله الصاوى بنظرة مشفقة :

ـــ ماذا تشرب ؟..

قال سلامة :

ـــ شربت شاياً فى القطار ..

ـــ قهوة إذن ؟..

ـــ لابأس !..

قال عبد الرحمن الصاوى وهو يحيط المكان بساعديه :

ـــــ كما ترى .. تغيرت السيالة ..

قال سلامة :

ـــــ عرفت الطريق من الحلقة إلى هنا بسهولة ..

ـــــ لماذا لاتزور أبناءك ؟..

فاجأه السؤال . هل فطن عباس الخوالقة إلى مايعانيه ؟.. هل يفطنون إلى السر الذى حرص على كتمه ، لم يصارح به حتى أقرب الأصدقاء ؟..

ـــــ المشغوليات كثيرة كما ترى ..

عاود الخوالقة إلحاح السؤال :

ـــــ فلماذا لايزورونك ؟..

هاهو سلامة أتى . هل يصحبه إلى الحلقة وقعدة العصر وجلسة أبو العباس . يرى الناس أن الصلة على حالها بينه وبين أبنائه ؟..

عاود سؤاله :

ـــــ كيف حالك ؟..

ـــــ الحمد لله !..

ـــــ سكينة وأخوتك .. كيف حالهم ؟..

أغمض عينيه فى تأثر :

ـــــ لاأخوة لى !..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ـــــ اسمى سلامة .. وبقية الإسم لاأعرفه ..

ارتعشت أهداب الرجل :

ـــــ اسمك سلامة عبد الرحمن الصاوى ..

وهو يواجهه بنظرة مشتعلة :

ـــــ عرفت كل شئ !..

سكنت ملامحه بالدهشة :

ـــــ أنت هكذا تحيرنى ..

لاحظ سلامة بركن عينه ، نظرة متطفلة من الواقف وراء النصبة ..

قال عبد الرحمن الصاوى وهو يتهيأ للقيام :

ـــــ أفضل أن نتكلم فى البيت ..

البداية لايذكرها . اعتاد الجميع صراخ سكينة ، واحتجاجها الدائم . الحمل ثقيل بغياب الأب ، ورحيل الأم ـــــ فيما بعد ـــــ فى نوبة قلبية ..

قال لها حسنين ـــــ ذات يوم ـــــ ممازحاً :

ــــ صدقينى .. لوكان بيدى إيقاف قطار الزواج ، لأوقفته !..

ربما كان الحديث فى نفقات البيت ، أو المشكلات الدائمة مع الجيران . تصاعد الحوار ، وامتد ، وتشابك . اعتاد كلماتها المستفزة ، فلم يغضب . توقفت أصابعه باللقمة فى الطبق ، لما فاجأته بالكلمات القاسية ..

رمقها بنظرة غير مصدقة :

ــــ تكرهيننى لهذا الحد ؟!..

وهى تشيح بوجهها :

ــــ هذه هى الحقيقة ..

أعاد السؤال :

ــــ تكرهيننى ؟!..

صرخت :

ــــ بل إنك لست أخى .. لست أخانا ..

أضافت من بين أسنانها :

ــــ أنت ابن حرام !..

وهو ينفض رأسه فى غضب :

ــــ تعرفين معنى ماقلت ؟..

أشارت إلى الأخوة المتشاغلين بما فى أيديهم :

ـــــ ويعرفه هؤلاء أيضاً ..

حل صمت ، عمقه أصوات احتكاك الملاعق بالأطباق ، وقلقلة الأطباق ، ورنين الأكواب ، والتمطق والمضغ والبلع ..

قلب الطبلية بأصابع مشنجة :

ـــــ تقتلنى .. وتواصلون الأكل ؟!..

أسند عبد الرحمن الصاوى ظهره إلى الكنبة الاستامبولى :

ـــــ لم أعد أقوى على الحركة ..

فوت الملاحظة :

ـــــ لكنك الآن ستأتى معى ..

حدجه بدهشة متسائلة :

ـــــ من ؟.. أنا ؟!..

زفر يؤكد غضبه :

ـــــ لن تهدأ نفسى قبل أن تؤكد أمام الجميع أبوتك لى ..

ـــــ وهل أنكرت ذلك ؟..

علا صوته :

ــــ أبناؤك ينكرون !..

همس الرجل فى نفاد صبر :

ــــ سلامة .. لاتعذب نفسك ، ولاتعذبنى ..

تلقفته أمواج تعرف المد وجزره . تكومت ــــ فجأة ــــ غلالات ظلام ، فلم يعد يبصر . سرى فى جسمه مايشبه الإغماء . احتواه إرهاق ، فقرر أن يقتعد الأرض حيث يقف . انثالت ــــ بلا رابط ــــ مئات الذكريات والصور والرؤى والأسئلة . حتى لو أعلن الرجل ــــ أمام الجميع ــــ أبوته .. فهل يغير ذلك من الحقيقة شيئاً ؟!.. كلمات سكينة مزقته ، فلا سبيل ــــ منذ لحظة الطعام التى لاتنسى ــــ إلى استعادة ماكان ..

ــــ إذن ..

ــــ الموضوع قديم .. ولاأريد التكلم فيه ..

ارتمى على كتفى الرجل بأصابع متقلصة :

ــــ صارحنى .. وإلاّ ..

اغتصب عبد الرحمن الصاوى ضحكة من أنفه :

ــــ تقتلنى ؟!

ثم وهو يهز رأسه :

ـــ تريحنى !..

وفرد يده فى وجهه :

ـــ أنتظر الموت منذ سنوات ..

تهاوى ذراعا سلامة :

ـــ لست إبنك إذن ؟..

نفض الصاوى رأسه بشدة :

ـــ أسأت فهمى ..

أمسك فنجان القهوة ، فلامست يده يد أبيه . أدرك أنهما ـــ ربما منذ مولده ـــ يجلسان معاً ، وقريبان للغاية . لاتفصل بينهما سوى االطاولة الرخامية الصغيرة . توقفت يده ، وأطال النظر إلى وجه الرجل : هل هو أبوه ، أو أن سكينة صارحته بما لم يكن يعرفه ؟.. وأين يجد ملامحه فى ملامح الرجل ؟.. تداخلت التجاعيد ، فغابت الصورة القديمة . أكد غيابها سمرة ، واضح أنها من الوقوف فى الشمس ، وليست اللون الحقيقى لبشرته ..

قال بتذلل :

ـــ صارحنى ..

أغمض عينيه كمن يتهيأ للنوم :

ـــــ علاقة مع توفيق مكوجى الرجل .. لم أصل ـــــ حتى الآن ـــــ إلى حقيقتها ..

انتزع الكلمات :

ـــــ ولماذا أنا ؟..

ـــــ كان ذلك قبل ولادتك بأشهر ..

وهو يسلم نفسه إلى موجة اليأس :

ـــــ لست أبى إذن ..

قال عبد الرحمن الصاوى :

ـــــ لم أقل ذلك ..

التمعت عيناه بأمل :

ـــــ فهل تأتى معى ؟..

فى نبرة متباطئة :

ـــــ لاأقوى على الحركة ..

داخله إشفاق لهيئة الرجل . أهمل ذقنه ، فاستطالت شعيراتها بلا تهذيب ، وثيابه متسخة . وخلا الصديرى من الزرارين العلويين ، فتداخلت عظام الصدر فى الشعر الأشعث ..

ـــــ كيف أواجه الناس ؟..

ـــــ لامخلوق يعلم ..

ـــــ وكيف أتصرف ؟..

ـــــ مثلما تصرفت فى الفائت من حياتك ..

ـــــ الفارق أنى لم أكن أعرف ..

ـــــ هل زدت أو نقصت شيئاً ، بما قالته الملعونة سكينة ؟!..

همس :

ـــــ سأقتل نفسى !

أمسكه من كتفه :

ـــــ تريد أن تموت كافراً ؟..

وهو يضرب راحة يده بقبضة اليد الأخرى :

ـــــ أفضل من مواجهة نظرات الناس ..

لون الصاوى نبرة صوته بتهوين :

ـــــ مايهمك نظرتك إلى نفسك ..

مال بعينيه إلى الفراغ جانبه :

ـــــ أشعر بالضياع والخوف ..

ـــــ وماذنبك ؟..

في سخرية يائسة :

ـــ كان مجرد شك ..

ـــ ليتك تضع كلماتى فى حدود ماتقصده ..

بدا الشيخ كأنه يسلم نفسه لإغفاءة ..

قال سلامة ليحرك الصمت الذى كاد يخنقه :

ـــ بماذا تنصحنى ؟..

انتزع ابتسامة :

ـــ لم تكن فى حاجة إلى أبيك خلال السنوات العشرين الماضية .. فماحاجتك إليه الآن ؟..

ثم تساند على نفسه :

ـــ عد إلى أخوتك قبل أن يقلقهم غيابك ..

تمنى سلامة لو أن أباه وبخه ، أو شتمه ، أو طرده من البيت . يجد سبباً لإفراغ مابنفسه : لماذا يتركه فى وظيفته الصغيرة ، ولايكلفه بعمل فى الحلقة ، أعد نفسه له قبل أن يسافر ـــ وأخوته ـــ إلى القاهرة . هو شيخ صيادين ، له بلانساته وصبيانه ، والتعب الذى يبديه يستطيع أن يريحه منه . هل لأنه يحرص على عدم رؤيته ؟.. هل يذكّره بما ينفيه فى بساطة البصقة ؟..

التفت إلى النافذة المطلة على شارع العوامرى ..

كان النهار لايزال فى أوجه . وكانت الشجرة الجرداء قد توهجت فى ذؤابات الأصيل .

حنيـــــــــن

تطول وقفتك على شاطئ الأنفوشى . نوة الكرم دفعت الناس إلى البيوت . الشاطئ خال ، والنوافذ ـــــ بامتداد البيوت المقابلة ـــــ مغلقة ، وضوء النهار تقلص على الجدران . رانت ظلمة رمادية شفيفة . والسحب متراكمة ، محمّلة بالمياه . فأنت تتوقع هطول الأمطار . تتصور الكشك الملاصق للسور فى ورش المراكب ، ملاذاً من الأمطار المتوقعة ، والموج يلاطم المراكب المكوّمة على رمال الشاطئ . تتناثر خيوط المياه والرذاذ إلى منتصف الطريق . لكنك تظل فى وقفتك . عيناك لاتتحولان عن السطح ذى السور المتآكل ، ومناشر الغسيل ، والحجرة التى يبدو أعلاها فى الناحية المطلة على شارع العوامرى . تعطيك الإشارة فى وقت تطمئن إليه . لاتعبأ بالبرد ، وتكتفى بقميص النوم . تسند مشنة الغسيل على سور السطح . تجرى على الحبال بخرقة . معنى تعيه ، ويثير أعماقك . تضع المشابك فى فمها ، ثم تبدأ فى التقاطها ، والتقاط قطع الثياب . تنشرها على الحبال بعرض السور . تتابع حركتها بعينين قلقتين ، تغيبان

عن الشاطئ ، والبرد ، والنظرات العابرة ، المتوجسة . يتركز اهتمامك فى الإشارة التى تتوقعها . تنهى نشر الثياب . تضع المشنة الخالية على رأسها ، وتدفع باب الحجرة المغلق بأعلى كتفها ، وتمضى ناحية باب السلم . تعرف أن هذه هى إشارة تحركك . تعود إلى العاصفة الصاخبة من حولك . تمسح ورش المراكب ، والشاطئ ، وطريق الكورنيش ، ونواصى الشوارع الجانبية ، والنوافذ المغلقة ، والأسطح . تطمئن إلى إحكام النوة قبضتها . لاأحد . والمرأة تميل إلى داخل الحجرة ، بدلاً من النزول إلى داخل البيت . تعبر الطريق وقضبان الترام إلى الناحية المقابلة . تخطو فى الوسعاية . إلى اليمين دكان الحاج محمد صبرة ، أغلق أبوابه اتقاء البرد ، وإن وشى الضوء ـــ خلف الأبواب الزجاجية ـــ بالحركة فى الداخل . تعانى النظرات المتطلعة من أصدقاء الحاج محمد ، إذا طالت جلستهم أمام الدكان فى أيام الصفو ، أو تضطر إلى السير حتى الحجارى ، والمضى عبر الشوارع الضيقة ، الملتوية . تحاذر المشى على أرض موحلة ، لزجة ، والريح تصفّر من الأبواب المواربة ، حتى باب البيت . تدخل ـــ دون تلفت ـــ فلا تفطن إلى

ارتباكك عين متشككة . تغوص فى الظلمة المتكاثفة . ترفع خطواتك وتخفضهما بالعدّ وحده . ثلاث درجات حتى تصل البسطة الأولى . تدور مع السلم ٨٧ سلّمة . آخرها باب السطح الموارب . تنفذ منه بقايا ضوء النهار . تدفع الباب بيد مترفقة . تطمئن إلى غياب الصّرير ، فلا يتنبه أحد من سكان الطوابق التحتية . فى الطابق الأول ـــ كما أخبرتك ـــ أسرة موظف فى التعليم الإلزامى . تقضى أشهر الشتاء بالقرب من مدارس الأولاد فى محرم بك . شقة الطابق الثانى ، تخلو إلاّ من عجوزين تزوج أبناؤهما ، وانتقلوا إلى أحياء أخرى . أسرتها فى الطابق الثالث ، يعلوها السطح مباشرة . تقيم مع زوجها وابنتها ذات الأعوام السبعة ، وأمها التى اكتفت بأعوام عملها الطويلة فى حلقة السمك ، ولزمت البيت . تهمس الخطوات حتى لاتفطن الأم أو الإبنة . الزوج غائب ـــ منذ عشرة أعوام ـــ فى البحار والبلاد البعيدة ..

تتلقاك بسؤال لاتبدله :

ـــ هل رآك أحد ؟..

تجيب فى همس يصل ـــ بالكاد ـــ إليها :

ــــ لأحد !..

في الخامسة والعشرين . قميص النوم الأسود ، المزين بالترتر ، ينسدل على جسم ممتلئ ، يتناقض مع خصرها البادى النحافة . وشعرها أسود ناعم ، عقصته فى ضفيرتين ، أسدلتهما على جيدها الأبيض ، العارى . وعلى خدّيها غمازتان ، تكسبانها ــــ إذا ابتسمت ــــ براءة طفلة . يمتد الصمت ، ولحظات التوقع . هى أدرى بالظروف . ربما تكتفى ــــ لخطر تخشاه ــــ بالكلام معك ، حتى ينتهى الوقت ، فتطالبك بالإنصراف ..

تفجأك بالسؤال :

ــــ ماهذا الوشم ؟..

وتشير إلى الوشم على ساعدك ..

تغالب ارتباكك :

ــــ أبداً .. سمكة !..

ــــ لماذا ؟..

ــــ أردت التعبير عن حبى للبحر ..

تمصمص شفتيها :

ــــ أنا لاأفهمك !..

تهمس فى تخاذل :

ـــــ وأنا لاأفهم نفسى !..

تضيف ، لتجاوز ارتباكك :

– متى يعود ثروت هذه المرة ؟..

فى صوت تشوبه استهانة واضحة :

ـــــ لاأعرف !.. ربما بعد أسبوعين أو ثلاثة ..

وتتنهد :

ـــــ اعتدت غيابه !..

ـــــ أين هو الآن ؟..

وهى تسوى الملاءة ـــــ بتلقائية ـــــ تحتها :

ـــــ قال إن المركب ستذهب إلى قرب الحبشة ..

تزوى مابين حاجبيك :

ـــــ بعيد !..

فى لهجتها المستهينة :

ـــــ أنا لاأعرف إلاّ أن أهلها سود البشرة !..

تنبهها إلى سبب مجيئك :

ـــــ أنت أجمل من أية بيضاء أو سوداء ..

تطلق من أنفها ضحكة مبتورة . تترك يدها لتسلل أصابعك . تتلمس حمّالات صدرها . تستكين ، فتنزع الحمالات . تدرك أنها أعدت نفسها لعناقك . تساعدك ـــ برفع يديها ـــ فى خلع قميص النوم . تخلى نفسها للفعل الآتى . تتحقق الرجفة ، فتستكين برأسك على صدرها ..

تهمس :

ـــ هل اعتبرتنى سريرك ؟!..

كالمتنبه :

ـــ أنت أجمل من كل شئ فى الدنيا !..

يعود إليها صوتها المستهين :

ـــ من قال لك ؟..

بلهفة :

ـــ جنتك التى أعشقها ..

تشيح برأسها :

ـــ كلام الليل ..

ـــ لو طلع مليون نهار .. فسأظل أعبدك !..

يخالط صوتها حدة :

ـــ وامرأتك .. وأولادك ؟..

تبدو الدوامة قريبة :

ـــــ هؤلاء ظروف .. أما أنت ، فدنياى كلها ..

فى نبرة مشروخة :

ـــــ وأنا دنيا زوجى أيضاً .. لكنه يهجرنى إلى الدنيا الواسعة ..

لاتحدثك ـــــ هذه المرة ـــــ عن رحلات زوجها إلى البلاد البعيدة . تثير فى داخلك مشاعر صعبة ، ومعقدة . تدرك أنك ستبرّئه ، وتغضبها . تريد أن تقول لها : البحر حياتى . وتقول : لاأحس بالغربة إلاّ وأنا على الأرض . وتقول : لو مت ، أتمنى أن أموت فى البحر . تفتش عن كلمات ترضيها ، ثم تكتفى بالصمت . تسرح فيما لم تتبينه . تدفعك بأطراف أصابعها :

ـــــ هل تنوى المبيت هنا ؟..

ـــــ ياريت !..

بلهجة تقطر جفوة :

ـــــ نم فى حضن امرأتك أحسن !..

ثم وهى تدفع الضفيرتين وراء كتفيها :

ـــــ أو اكمل السهرة عند عشيقة أخرى ..

تتثنى إليها نظرات متسائلة ، مستغربة ..

يداخل صوتها بحة :

ـــ أكون حمارة لو تصورت أنى المرأة الوحيدة التى تخون بيتك معها ..

تهتف بانفعال :

ـــ والمرسى ..

تضغط على ساعدك بأصابعها :

ـــ لاتدخل الأولياء بيننا ..

تهمس بالقلق :

ـــ ماذا جرى لك ؟..

وهى تغمض عينيها :

ـــ لاشئ .. أنا كما أنا .. لكننى أكره النفاق !..

تهتف باسمها :

ـــ يسرية !..

ـــ لاشئ يامختار ..

وتعاود التنهد :

ـــ ثروت وحشنى !..

تقز دون توقع . تسدل الملاءة حول جسمها . تسبقك إلى باب الحجرة . تتأمل قطع الغسيل المنشورة على الحبال . تبدو كالأشباح المتطايرة فى غياب القمر وراء السحب المتكاثفة . تلحقها ، وتعد السلّمات إلى البسطة الأولى . لاتحاول التلفت . حتى باب شقتها تغلقه فور دخولها . تغالب ارتباكك . لايشغلك إلاّ أن يحتويك الطريق . تمضى فى الضوء الشفيف ، يصنعه مصباح الغاز فى ناحية شارع العوامرى ، والنور المتسلل من النوافذ المغلقة . تميل فى انحناءة شارع فهمى الناضورى إلى شارع السيالة . تمضى إلى قهوة الزردونى . تطالعك الصيحات المهللة ، المتسائلة ، العابثة . تجلس ، وتستمع ، وتتكلم ، وتسأل ، وترد ، وتطلق النكات .. لكن كلمات المرأة فى حجرة السطح تظل تشغلك . لماذا ؟.. يمتد الليل . ترى السؤال معلقاً فى اللمبة الوحيدة خارج القهوة . تظل مضاءة ، حتى آخر الليل .

الغـــــوث

قدم أبو العباس على مريده أبو عبد الله الحكيم بأشموم . فلما جاء الليل ، دعاه أبو العباس . دنا الرجل منه ، فوضع أبو العباس يده خلف ظهره . وفعل أبو عبد الله الأمر نفسه ، وتعانقا . بكى أبو العباس ، وبكى الرجل لبكائه ، دون أن يدرى السبب . قال أبو العباس : ياحكيم ، ماجئتكم إلاّ مودعاً . ياحكيم ، سأذهب إلى المقسم لأودع أخى ، ثم أعود إلى الإسكندرية ، أقضى بها ليلتى ، وأدخل فى اليوم التالى قبرى..

وسافر أبو العباس إلى أخيه . أقام عنده أياماً قليلة . ثم رحل إلى الإسكندرية ، فأقام بها ليلة ، لحقته الوفاة فيها . وشيع إلى قبره فى اليوم التالى ..

أسندت أصابعها إلى الباب ، قبل أن تلتقى ضلفتاه . أغلقته برفق ، حتى لايثير السكون السادر من حولها ..

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يغادر البيت ، حين يختلط طلوع الصباح بظلمة الليل . مع ذلك ، فقد داخلها خوف . ربما لاعتزامها السير فى غير الطريق التى اعتادتها . نصحها جابر برغوت بأن تكون زيارتها للسلطان ليلة الأحد ، قبل طلوع الفجر ، فإنه يكون حاضراً ..

مالت من شارع حافظ إلى شارع أبو العباس المرسى..

أحكمت الملاءة حول جسمها ، وهى تهبط الميدان الواسع ، لفته غلالة رمادية ، فبدت الكائنات كأشباح . ميزت أضرحة الأولياء أوسط الميدان . الكسوة الخضراء غابت فى مظلة رمادية ، التفت بها الأشياء حولها . لامارة ، ولِصق أبو العباس أجساد غيبها النوم ..

جالت ــــ بنظرة ساهمة ــــ فى الميدان الساكن ..

اقتربت من شباك الضريح الأول من اليمين . مسحت بيدها على أعمدته الحديدية ، وقرأت الفاتحة . فعلت الأمر نفسه أمام شبابيك الأضرحة الأخرى . إثنا عشر ضريحا . الأولياء أصحاب الدرك ، يخضعون لإمرة القطب الأعظم ،

سيدى المرسى ، ونواهيه . يقضى بالصالح ، فيمتثلون لقراره ، وينفذون ماقضى . عذر تأخر النصفة ، فى انشغال أصحاب الدرك ـــــ والقطب من فوقهم ـــــ بآلاف الالتماسات من طالبى البرء والشفاعة والمدد . تعطى للأولياء الميامين عذرهم . يقضون بما يفيض عن الحد . الولى ـــــ له التوقير والاحترام ـــــ بشر ، ينام ويأكل ويطلب الراحة . الإثقال عليه حرام ..

وقفت فى الميدان الواسع ، تعاود الالتجاء إلى القطب الكبير ، سلطان الإسكندرية وحاميها ، بعد أن أكثرت من اللجوء إلى مريديه . تهدأ وتستريح . يحنِّنْ قلب سيد الفران ، فيتزوجها . ينسى ماكان من علاقتهما القديمة ، يصبح كأنه لم يكن . يبعد عنها شر أولاد الحرام . إذا لم يتحقق الأمر ، فسترفع المظلمة إلى رئيسة الديوان . تسافر إلى القاهرة ، فتقضى أم العواجز بما تشاء ، فى مجلسها كل خميس ..

صعدت ـــــ بخطوات متلهفة ـــــ إلى باب الحريم ، فى جامع أبو العباس . تكررت زياراتها إلى المكان . تطوى الرقعة الصغيرة ، فى صورة حجاب . يكتب عرضحالجى المحكمة الشرعية بشارع فرنسا ، ماتمليه عليه . تدس

الحجاب فى ثنايا الكسوة الخضراء ، أو تقذف بها خلل أسوار الضريح . وربما وضعتها على الطرف المقابل من النافذة الحديدية ..

قال لها العرضحالجى ، وهو يلف الدوبارة المربوطة بالنظارة الطبية حول أذنيه :

ـــ هذه هى الرسالة الثانية بعد الثلاثين ..

وطوى الرسالة كالحجاب :

ـــ يبدو أن الأولياء يرفضون ابتعادك عن الكار ..

هتفت وهى تطوح الهواء باصبعها :

ـــ حتى الهزار لايصح فى هذا ..

وتغلف صوتهابمسحة إشفاق :

ـــ ربما نالك عقابهم ..

...   .

...   .

لحضرة صاحب الفضيلة ، الإمام المرسى أبو العباس ، رضى الله عنه . سلطان الإسكندرية ، ومنصف الغلابة والمنكسرين ، ومغيث طالبى الشفاعة والمدد ..

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وآله أجمعين ..

حضرة سلطان الإسكندرية ، شيخنا الكبير ، قطب الطريقة الشاذلية ، صاحب المقام الرفيع ، صاحب السيادة والفضيلة ، صاحب المجد والشرف ، سيدى الإمام أبو العباس المرسى ، رضى الله عنه وأرضاه ..

ياإمام العارفين ! ياسيدى ! ياشيخى ! ياإمامى ! ياحاضر المريدين ! ياقطب الأولياء !..

تتظلم إليكم بهذا أنسية بنت جمالات ، بنت أنور المدفع ، المقيمة فى حماكم بمدينة الإسكندرية ..

توسلت إليكم بجاه سيدنا محمد الحبيب ، أن تقضى حاجتى ، وتزيل شدّتى ، ياحاضراً لايغيب ..

سيدى الإمام ..

أنا فى عرض الله وعرضك . أتوسل بك إلى الله سبحانه وتعالى ، أن تنتقم عاجلاً ، مستعجلاً ، ممن ظلمونى ، وأساءوا إلىّ ، وأن يورّينى الله فيهم بقدرته ـــ سبحانه ـــ مايسر خاطرى ..

أنا أرفع شكواى إلى أهل الباطن ضد من ظلمونى ، واستحلّوا ماحرّم الله ، وتعدّوا على بكل شئ ..

أُحكم بعدلك على هؤلاء القوم الظالمين . إجعلهم موعظة لمن يتّعظ ، وعبرة لمن يعتبر ..

لقد سبّنى إمام جامعك بما يمنعه الله ويحرّمه . لايعلم أنى ابتعدت عن كل مايسئ إلى دين الإسلام ..

ولما ساعدنى المعلم عبد الرحمن الصاوى ، عاب عليه حمادة بك ذلك . قال له كلاماً فصيحاً ، معناه أن الصدقة لأمثالى حرام ، مع أنى ــــ يشهد الله ــــ أريد أن أبتعد عما يغضب الله ورسوله ، ويغضبك ..

لقد ظلمنى هؤلاء الناس كثيراً ، ودائماً يتعرضون لى بالأذى ..

أنا لاأحد لى خلافكم ، لافى الدنيا ، ولافى الآخرة ..

لقد حرم الله على نفسه الظلم ، وهؤلاء الناس ظلمونى ..

أتوسل إليك أن تمنع عنى حمادة بك .. فهو يضايقنى ، ويتعرض لى ، ويوجه لى كلمات قاسية ، ويعرض علىّ

أموراً معيبة ، أنت أعلم بها ، وقررت أن أبتعد عنها ، وأخلص لعبادة الله ..

إن حمادة بك يريد أن أظل مخلوقة فاسدة ، ولاأعود مثل بقية الناس مخلوقة صالحة . فهو يدعونى إلى الفعل الحرام . وهذا لايرضى الله ، ولاالرسول ، ولاأنتم أيضا ..

فاحكم بما يرضى الله ، ورسوله ، ويرضى فضيلتكم ، ويكون الحكم مشمولاً بحضرة النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الكرام ، والأقطاب الأربعة ، والأنبياء ، والمرسلين ، والمقلدين ، والمجتهدين ، والشهداء ، والصالحين ..

أرجو سرعة الحكم فى بحر أيام ، لآخذ حقى من هؤلاء المعتدين ، لأنى امرأة مسكينة ، لاجاه لى ، ولاسند ..

أجرنى ياسيدى أبو العباس ، وانتقم ممن ظلمنى ، واظهر لى كرامتك فيهم ..

أعرفك لما ربنا يبلّغ المقصود ، لك الحلاوة إن شاء الله . أعمل لك خاتمة لوجه الله ، وأنفق على المحتاجين والفقراء ، على قدر طاقتى ، وأقبّل عتبة مقامك ..

الله يقدّرك للعمل الصالح . أنا متعشمة فى بطل منصان..

أرجو أن تظهر لى ، وتبين لى بيانك ، وتنتقم من الذين تعدّوا علىّ بإذن الله ..

مددك مددك مددك ياسلطان .. يامرسى ..

أنا محسوبة عليك ، والمحسوب منسوب ، ياأبا مقام عال ..

العبد ليس بيده شئ ، وأنتم من عباد الله الصالحين ..

... ...

... ...

بدأت بالأولياء الإثنى عشر . ثم لجأت إلى قطب الأولياء . يبحث الأمر ، ويقضى فيه . إذا حدثت النصفة ، فقد نالت ماتتمنى . أما إذا ظهرت المسألة أكبر من همته ، فإنه يرفعها بكل ماباحت ، ودعت ، وابتهلت ، إلى الديوان . تتصدّره الست الرئيسة . يحضره الأئمة الرفاعى والشافعى والبدوى والجيلانى . يناقشون الأمر ، يقلّبونه على كل وجه ، يقضون بالقرار الذى يسعد أيامها ، مع سيد الفران ، أو بدونه . فهم أدرى بصالحها . أرهقتها الأيام ، ولابد لكل شئ

من نهاية . طالعها المقام بنور غائب المصدر ، وتضوع بخور برائحة جميلة ..

تأكدت من التفاف الملاءة حول رأسها ، فلا يبين من شعرها شئ . السلطان يراها ، ويعاين هيئتها . قد يغضبه ماتراه عادياً . أخرجت من عبّها منديلاً ، مسحت به على المقصورة ، ثم مسحت على رأسها . البركة تسرى من السلطان إلى المقصورة ، فإلى المنديل ، فإلى حياتها ..

ثبتت يدها على القضبان النحاسية ، اللامعة . وحياتك ياسلطان .. وحياة من أماتك ، ووضع فيك البركة . أنا وليّة مسكينة ، لاأهل لها ولابيت . لاأريد إلاّ أن يتركنى الناس فى حالى . إذا كنت غلطانة ، عاقبنى . وإذا كنت مظلومة ، فلا تجعل الظلم يستمر ..

ألصقت شفتيها بالشبابيك ، كى يستمع السلطان إلى ماتهمس به . يقضى فيه إن تيسر القضاء ، أو يرفعه إلى أولياء الديوان ، يقضون بما لهم من حول وقوة . يتحقق مطلبها ، فتطلق الزغاريد فى أنحاء المقام ، إعلاناً للفرحة ..

تأكدت من التفاف الملاءة بيد . إنحنت ، فكنست باليد الأخرى أرضية المقام . ثم قلبت السجاجيد المحيطة به . مقلوبة عليهم إن شاء الله ..

وانصرفت ..

* * *

قبل أن تميل إلى الميدان ، شهقت لرؤيته ..

لم تتبين فى الغلالة الرمادية ، سوى هالة الشعر التى غطت وجهه ، والعينين يطل منهما بريق غريب ..

قال لتراجعها المذعور :

ـــ مم تخافين ؟..

تعرف أن القطب يظهر لزائريه أحياناً . الناس ـــ الآن ، وفى كل وقت ـــ يتحلقون ضريحه ، ومقامه ، يبثون شكاياتهم ودعواتهم وابتهالاتهم . هاجس يحدثها بأن الشيخ الواقف أمامها ، هو القطب الأعظم ، لاسواه ..

حاولت انتزاع الكلمات :

ـــ أنا ..

قاطعها :

ـــ أنسية ..

أضاف لنظرتها الذاهلة :

ـــ مشكلتك لها حل ..

فى توسّل :

ـــ أستريح ..

ـــ يقضى الله بالصالح ..

استجمعت جرأتها :

ـــ هل أنت ؟..

قاطعها :

ـــ سبحانه سيد الخلق ..

وذهب متلاشياً ، كأنه لم يكن ..

خامرها ندم لأنها لم تعلق به . تكشف رأسها ، وتنحنى على قدميه تقبلهما . تعلن ـــ بما وسعها ـــ استغاثتها بكراماته ومدده . مفاجأة اللحظة أنستها ماكان عليها أن تفعله ، وإن تعزت بالابتسامة التى لم تفارقه ..

الليلـــــةالكبيـــــرة

إلهى قد خلقت لــنـــــا محـــمــــــد لك الفضل والجميل على محمــــــــد

ونشهد أنك المولــــــى إلهـــــــى والموصــول كالهــــــادى محمــــــــــــد

وقل ماشئت تمـــــــدح محمـــــــد مــن البيــت الحــــرام ترى محمـــــــــــد

الليلة التاسعة . الليلة الأخيرة فى مولد السلطان ..

امتلأ الميدان الواسع بالناس والأعلام والأكشاك والخيام وسرادقات الأذكار ونصبات القهاوى والغرز والوشامين والملاهى وألعاب النشان ، وباعة المصاحف وصحيح البخارى وكتب السير الشعبية وتراجم الصحابة وأولياء الله والصالحين ، والصور الدينية وعربات الأكل والحلوى وباعة الفول والفلافل والمخلل والترمس والخروب والعرقسوس والحمص وحب العزيز وحلاوة دمياط وألعاب الثلاث ورقات ، والسجاجيد والحصر والكلوبات ولمبات الكهرباء والميكروفونات وأكشاك الختان ، وحلقات الذكر والفرق

الموسيقية وعساكر سوارى البوليس ، والدخان الباهت يتصاعد من مداخن عربات اللب والسودانى ..

تعالت البيارق والأشاير والخرق الملونة ، وأصوات المزامير والدفوف والطبول والمزاهر ودقات الكؤوس ، والأدعية والابتهالات والصياح والصراخ والملاغية والتوسلات ومناداة الأولياء ، والنداء يطغى على كل الأصوات : الله حى !.. الله حى !..

الآلاف وفدوا من الإسكندرية ، والمدن ـــــ والقرى ـــــ المحيطة . نصبت خيام الخيش ، وأكشاك الكارتون ، والقعدات التى بلا غطاء ، فى زوايا الميدان ، وفى الدحديرة الخلفية ، وفى امتداد الطريق إلى الموازينى والسيالة والحجارى . شغل القادمون مداخل البيوت ، وحنايا السلالم . وفرشت الحصر والأكلمة والسجاجيد . وصفّت أوانى الطعام ، وعلب الشاى والسكر ، وتعالى وشيش البريموس ..

علت لافتات الطرق الرئيسية ، والفرعية : الشاذلية والأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية . أعلام الشاذلية مختلفة الألوان ، عكس أعلام الفرق الأخرى ذات اللون الواحد ..

ازدحمت الساحة الواسعة ، المطلة على الميناء الشرقية ، بالبشر والألعاب والبشاير والنايات والموشحات والمواويل والضحكات والهمسات والهذيان والصراخ والانجذاب ورشفات الشاى وأنفاس الحشيش وحبش إيطاليا والكرملة وعصاية على افندى والأغنيات والأناشيد وزعيق المكروفونات واللبد والطرابيش والجلابيب والسيالات والملاءات اللف والبلغ والأقدام الحافية والملاحف والسراويل والمسابح والعمائم واللاسات والسيوف الخشبية والأذرع والسواعد وبقايا الطعام وروائح البخور والقئ والعطن والمجاذيب والمصروعين ورجال الطريق والفتاة الكهربائية وفرقة على الكسار وفرقة المسيرى وشاعر الربابة ولعبة القوة والأركان المظلمة والألعاب النارية وألعاب الحظ والمراجيح والدويخة والعرائس والأراجوز وخيال الظل وصندوق الدنيا والحواة ورقصات الغوازى من صحراء المتراس ، ومن خارج المدينة ..

القهاوى مفتوحة إلى الصباح . نصباتها من الخشب والصفيح والخيش ، ومئذنة أبو العباس التفت بأضواء ملونة . وتلاغط من مدائح الرسول ، وأذكار الشاذلى ، والأوراد ،

ودلائل الخيرات ، والدعوات ، وصيحات المنشدين ، وحشرجات أهل الذكر ، وطالبى البرء والشفاعة والنصفة والمدد . جماعات يتلون آيات القرآن الكريم ، وأناشيد الترنم بحب الرسول ، والصلاة والسلام على النبى . أجسام الذاكرين تتمايل ، وتتهدج أصواتهم . يطيب لهم الذكر ، وترديد أسماء الله الحسنى . يتواجدون ، يضطربون ، يشحطون ، يسّاقطون على الأرض ، يظلون بلا حراك حتى يكبس الشيخ أيديهم وأرجلهم ، وإنهاضهم على بركة الله . تتعدد حالات الصعق والوجد والبكاء والنحيب وإلقاء العمائم والطرابيش واللبد ، ونزع الثياب ، أو تمزيقها ..

مـــدد مـــدد .. ســـيدنا النبـــى مـــــــــــــــــدد

مــدد سيدنا الحسين مـــــــــــــــــــــــــــدد

مـــدد مـــدد .. ياطـــاهره مـــــــــــــــــــــــدد

مدد مـــــدد ياشاذلـــــــــــى مـــــــــــــــــــــدد

ويابدوى .. يامرسى .. ياحنفى ياراضى يارفـــاعى سيدى ابراهيم

مدد مدد .. ياشاذلى .. مـــــــــدد

العشرات يعزّمون ، ثم يبتلعون الجمرات المشتعلة ، يزردون الزجاج ، يضعون فى الأفواه ثعابين تتلوى ، يلتهمون الثعابين الحية ، يطعنون الصور بالمدى ، يقبضون على الحديد المحمى ، يضعون الأصابع فى النار ، يدخلون النيران ، يرتدون الأطواق الحديدية فى الأعناق ، يلفون الأجسام السلاسل ، يوخزون الوجنات بالإبر الطويلة ، تخترق الفم إلى الوجنة الأخرى ، يلفون الشعور ويلبدونها ، يرتدون طواقى السعف والطراطير المزدانة بالريش والخرق الملونة ، يحملون مزاريق الجريد ، والسبح الهائلة ، والشموع ..

اعتاد رؤية ليلة المولد ، حتى أعوام قريبة . ثم لم يعد يذهب إليها ..

كان الزحام يسعده . يغرق فى بحر الناس . يتلذذ بالتصاق الأيدى والأكتاف ، ورائحة العرق ، والصراخ ، والشتائم . ربما اندس فى زحام الترام ، أو الأوتوبيس . ينغرز اللحم الملتصق ، والأنفاس ، والعرق . يلتذ بالضغط من حوله . يغمض عينيه ، ويسرح فيما لايتبينه . وكانت الاحتكاكات تضيف إلى صراخ أعماقه . ثم حرص جلساء

قعدة الحاج محمد صبرة ـــ لايذكر لم ولامتى ـــ أن يصحبوه فى جولاته داخل المولد . يذوب فى البحر الواسع . من يعرفهم ، ومن لايعرفهم . يتدخل الجلساء ـــ لم ؟ ـــ يبعدون الزحام عنه ، حتى يغادر المكان ..

قال له المعلم أحمد الزردونى :

ـــ غداً الليلة التاسعة لمولد السلطان .. الليلةالختامية..

أردف لملامحه المتسائلة :

ـــ دخولك الانتخابات يفرض أن تحضر ليلة المولد..

قال عباس الخوالقة :

ـــ هذه هى الليلة الكبيرة .. وغداً يبدأ مولد سيدى جابر ..

قال المعلم الزردونى :

ـــ الحاج محمد يملك قائمة بموالد الأولياء : أبو العباس ..فسيدى بشر .. ثم سيدى محمد الرحال ..

وأضاف :

ـــ أكل عيشه فى هذه الموالد ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ لم يعد محمد صبرة يذهب بعيداً عن مولد أبو العباس .. ترك بقية الموالد لصبيانه !..

قال الحاج قنديل :

ـــــ لاتتعبوا الرجل .. فنجاحه مضمون ..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ النتيجة الوحيدة المضمونة ، هى فوز مرشحى الوفد ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ نحن لانعرف متى تجرى الانتخابات ، ولامن سيرشح الوفد ؟..

قال الزردونى :

ـــــ قيل : لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه !..

قال الحاج قنديل :

ـــــ حمادة بك يستطيع الفوز مستقلاً ..

اعتاد أهل الحى مناداته بلقب بك ، منذ صاهر أسرة سعيد النقيب . ناداه الحاج قنديل باللقب ـــــ أول مرة ـــــ تقديراً لمكانته الجديدة ..

أضاف عباس الخوالقة مهوناً :

ـــــ إنه فى قلوبنا نحن ، ولن تذهب أصوات دائرة الجمرك إلى سواه ..

نزع الحاج قنديل مبسم الشيشة ، ومسح عليه بباطن يده:

ـــــ إذا فاز حمادة بك .. نضمن أن يكون لنا فى البرلمان سند قوى ..

قال حمادة بك :

ـــــ بل تضمن أنك أنت نفسك قد أصبحت عضواً فى البرلمان !..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ الأمنيات الطيبة وحدها لن تكفى .. لابد أن يتحرك حمادة بك بين ناخبيه ..

كان قد صافح آلاف الأيدى . شرب مالاحصر له من أكواب الشاى ، وفناجين القهوة . سار فى حوارى وأزقة . لم يكن يتصور أنها تابعة لحى الجمرك ، أو أن ناسها يسكنون بحرى . تحمّل المساومات ، والابتزاز ، والملاحظات المتسائلة عن الانتخابات التى لم يبد أفقها ..

علت الأصوات المؤيدة ..

قال عبد الرحمن الصاوى :

ـــ هذا هو مايجب أن نفعله .. جولة فى قلب الليلة الختامية ..

قال حمادة بك :

ـــ لكنها ستكون ليلة زحام ..

قال الخوالقة :

ـــ هذه افضل دعاية ..

قال الزردونى :

ـــ نحن لانعرف متى تجرى الانتخابات ..

جاوز حمادة بك الملاحظة :

ـــ المهم .. كيف نسير وسط الجلوة ؟..

قال الحاج قنديل :

ـــ دعوا لى هذه المسألة .. ثلاثة عساكر يفسحون الطريق إلى داخل الضريح ، لوشئنا !..

دفعه الحاج قنديل ـــ مترفقاً ـــ بعيداً عن موكب المطاهر . يركب الأولاد حميراً . كل واحد ممسك بمنديل أبيض . يضعه على فمه . يقيه من الشيطان ، ويحفظه من العين الحاسدة . يتوقف أمام الخيمة الصغيرة . أضاءها ـــ

من الداخل ـــــ كلوب . جلس الحاج محمد صبرة . إلى جانبه ترابيزة ، عليها أدوات الختان ، ومايعقبه . أمامه كرسى صغير ، يضع الأهل طفلهم عليه . يتولى الصبى رخا نزع أسفل جلبابه ، وإفساح مابين ساقيه . يجرى الحاج محمد بالموسى ، فينتزع قطعة الجلد ، قبل أن يبدأ صراخ الطفل . يكتم رخا بيده تواصل الصرخات ، فلايخاف من ينتظر دوره من الأطفال ..

فى أيام مولد السلطان ، يفرغ الحاج محمد لعمليات الختان . يغيب عن دكانه . يظل فى الكشك الخشبى الصغير ، قبالة الباب الخلفى للجامع . لاتكف فيه عمليات الختان . للسلطان بركته فى الذكورة ، وعدم الربط ، وسرعة التئام الجروح . يستعين بشطورة ، ضارب الطبلة من قهوة العوالم ، كى يغطى على بكاء الأطفال ، وصراخهم ..

بدت الجلوة من بعيد .. موجات من البشر ..

أبطأ حمادة بك من خطواته ، فأبطأ من كانوا معه : كيف ينفذ وسط بحر البشر، إلى ضريح أبو العباس ؟..

قال الحاج قنديل :

ـــــ لاتخشوا شيئاً .. العساكر أمامنا يفسحون الطريق..

التصقت الأكتاف بعفوية ، وظلوا فى أماكنهم ..

همس حمادة بك :

ـــــ لامعنى لذلك كله .. الأفضل أن نعود ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ ويقول الخصوم إنه خشى السير وسط الناس ؟!..

أرفق الحاج كلماته بدفعه بيده . تلاحمت الموجات الصغيرة ، المتلاحقة . شكلت موجة عالية ، قاسية ، ضاغطة ، اجتذبته فى قلبها . وجد نفسه ـــــ فجأة ـــــ قطرة فى البحرالصاخب . الصراخ والزعيق والأيدى والأرجل والرءوس والأنفاس ورائحة العرق والعصى والقوايش والأزرار النحاسية . لمح ـــــ وسط الموج البشرى ، المندفع ، الإفريز العلوى لواجهة أبو العباس . ثانية أو أقل ، ثم اختفى . لم يعد إلاّ الموج الضاغط ، المتلاطم ..

تدافعت الجموع . تلاصقت . أحس أنه يختنق ، ينضغط بتدافع الأجسام . يختلف عن الضغط الذى يحبه فى وقفته أمام باب الترام ، أو مايتطلع إليه فى سره المحير .

يعانى الدفع ، واللكزات ، وقبضات الأيدى ، وركلات الأقدام ، وتمزق الملابس ، وصعوبة التقاط الأنفاس . لم تفلح ضربات العصى ، ولاالقوايش ، فى فك الأجسام التى تلاحمت ، وذابت ، فبدت جسماً واحداً ، ينتفض ولايتحرك ، أو أن تحركه لايكاد يبين ، اعتصره التلاصق ، واختلاط الأنفاس والرائحة النافذة والعرق والنداءات والصيحات والصرخات والتدافع الثابت فى مكانه ..

تداخلت مجموعة الرجال . ابتعدت عن العساكر . ثم انفصلت بضغط الزحام الهائل . الأمواج أقوى من تفاديها . دفعت بالرجال ، كل فى ناحية . ذابوا فى مياه البحر الصاخب . بكى الحاج قنديل بلا إرادة . تساقطت الدموع على خديه ، دون أن يجد منفذاً فى الحصار الضاغط . وخانت الصرخات حمادة بك . تلاشت فى الصخب العنيف حوله . وأسلم بقية الرجال أنفسهم إلى الموجات المتدافعة ، المتلاحقة ، القاسية . لايقوون على التملص ، أوالتقاط الأنفاس ، وتحول النظرات عن السواعد والأيدى والرءوس والوجوه والأقفية . إختلطت المشاهد . تضوى وتختفى . غاب الزمان والمكان ، فلم تعد إلاّ اللحظة . بدأت ، وهى

التى تحدد ــــ إذا انحسرت الأمواج البشرية ، المتلاحمة ، المتدافعة ــــ متى تنتهى ..

اليقيـــــن

متى تنزل أمطار المدد على أرض النفوس الطيبة ، والقلوب المطهرة ، والأرواح المضيئة ، والأسرار المقدسة ؟..

***

أنا من أهوى ومــن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنــا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصـــرته أبصرتنـــــا

لما غادر الحضرة ، كانت تهب على ميدان المساجد نسمات خريفية ، تماوجت فى نفسه مشاعر متباينة ، كأنها الفرحة ، أو اللذة ، أو الانبساط ، ففتح قلبه لكل من حوله ، وماحوله . أحس أنه يطير فوق الأرض ، فليس لقدميه وقع ، تسيران ولاتسيران ، قوة غريبة تحمله ، تمضى به إلى الأمام ، وإن بدا له كأنه ينقل خطواته ..

كان الطريق خالياً ، لايرى شيئاً يكرهه . حتى الكلاب التى اعتاد رؤيتها ـــــ وتجنبها ـــــ بالقرب من دكان شبيرو الجزار ، لم يعد يخشاها . طابت له نفسه . استغرق فى النشوة ، فغمرته تماماً ..

قال له الشيخ يوسف بدوى ، وهو يغادره :

ـــــ أنت الآن منته واصل . مقام الصحو والتمكين ، وإجابة الحق من حيث دعاه ، وإن كنت جاوزت ـــــ فى الحقيقة ـــــ كل المقامات ..

زالت العادة ، وحلت العبادة . جاوز حجب التردد والشك والخوف . جعل من المجاهدة سبيلاً وحيداً لأنوار المشاهدة . التجلى والانكشاف ، أوجبا عليه الصمت والمشاهدة . صمت حتى عن ذكر الله ، خشية ألاّ تفد الرؤيا . يغمض عينيه ، فتنسد طرق الحواس الظاهرة ، وتفتح الأبواب لحواس القلب . يهبه الله علم أسرار المفاتيح على اختلافها . يفتح به الخصومات والمغالق والمعضلات والمضايق . زهد فى الدنيا . مال إلى جانب الآخرة . يحميها حرس الله . يشرف عليها بعدله . لاتغفل عنها عينه . تكتمل للإنسان فيها طمأنينته . قطع العلائق كلها ، وأقبل بكنه الهمّة

على الله . شغله التعرف إلى جواهر العلوم والأنباء والمعارف ، الحقائق التى لاتتبدل ولاتتغير باختلاف الشرائع والأمم والأزمنة . تطلع إلى الأفق المبين ، نهاية مقام القلب . جلا مرآة قلبه ، فلا ينطبع فيها إلاّ وجه المحبوب . تنزه عن أن يشغله أى شئ عنه . لم يعد يشارك فى حلقات الذكر . لاذ بالحضرة الواحدية . انصرف بفكره إلى قدس الجبروت ، واستدام لشروق نور الحق فى سره . يرى اتصال مدد الوجود ، ويخشع لذكر الألف . كل شئ موجود به ، معدوم بنفسه ..

عظمت المحبة ، وكثر العطش ، وغرق فى بحار المنن والآلاء ، واستحقت الروح رفع الحجاب ، وتأهب لورود الإمداد . سافر إلى جزر قريبة ، وبعيدة . تناهت أصوات موسيقا . رقصت ــــ فى ضوء القمر ــــ بنات الحور ..

كان يحس ــــ وهو يصلى ــــ أنه بين يدى الله العظيم . عن يمينه الجنة ، وعن شماله النار ، وخلفه الملائكة ألوف ، يصلون ، ويدعون له بحسن القبول . لايحصره الكون ، فلا تقله الأرض ، ولاتظله السماء ، والبحار لاساحل لها ، والغوص بلا حد ولامنتهى ..

لمح أنواراً فى أفق قلبه . لاحت ، فاطلع على ماكان خافياً . أغرقته سحائب الرحمة . تكشفت له الأسرار . تطهرت نفسه من الهواجس والوساوس الخفية . برئت من شوائبها . صفت ، وسمت . استحالت إلى روح لطيفة خالصة ، تهفو للوصول إلى الملأ الأعلى ، والمبدأ الأسمى . تشهد من الجمال المطلق مالا رأت عين ، ولاسمعت أذن ، ولاخطر على قلب بشر . عالم يتوق إليه ، فلا يبلغ معرفته إلاّ بالكشف ..

ترك حظوظ النفس فى جميع مافى الدنيا ، فى كل مايشغله عن الله . انخلع عن كل مايمت للأرض بسبب ، وتحير فى ميادين القرب . صبر على المجاهدات والرياضات ، وغلب عليه الشوق إلى المشاهدة . أطال العكوف على باب الحضرة الإلهية ، يتطلع إلى انفراجه . يترصد للشرارة حتى يلتقطها . قطع المنازل والترقى فى المقامات ، فشفت الحجب الكثيفة ، وتقطعت أستار الجلال ، وأشرقت شموس العرفان ، وصفت البواطن من الشواغل والشواغب ، وشعر أنه قد بلغ غاية مقام القرب والتمكن . حتى السماء السوداء ، استحالت قبة من نور أسود ..

مال من الميناء الشرقية إلى الأنفوشى . عبر حلقة السمك ، فلم يرها . غاب عن سمعه تلاغط البيع والشراء ، والصيحات التى ناداه بعضها باسمه . انشغل عن نفسه ، وعما حوله ، بالدفقات والنفحات ، تهب عليه ، تكشف له عن حقائق الأمور الإلهية ..

استقر إيمانه . لم تعد تشغله تصرفات الحاج قنديل ، ولاشتائمه ، ولاقلة ، أو كثرة ، مايصطاده ، وإن كان المزاد فى الحلقة يتوقف عنده ، أم يفوز به غيره . أحس أنه قد انتقل من ضيق الأكوان ، ورحل إلى سماء المعرفة ، وأنه على أعتاب الحضرة الإلهية . تهيأ باطنه لتلقى الإلهامات الربانية ، أنوار الله واسراره ، يتلقى المدد من الواحد الأحد ..

تأمل أمواج البحر المتلاطمة فى صخب . أحس أن مايمور فى أعماقه أشد صخباً . فاض ماء المدد ، فغسل أوساخ الوهم . تمت المصافاة . حلت المناجاة . فتح باب القدرة . تنزهت الروح فى عالم الملكوت . جالت فى دنيا الحق . أشرقت عليه شوارق الأنوار ، ومقامات الإيمان بالله ، وغرقت الروح فى بحر التوحيد ..

تكامل إشراق نور اليقين ، فغطى الوجود ، وارتوى من الخمرة الأزلية . تبدت أمامه صفات الله : العظمة ، والعزة ، والجلال ، والجمال ، والكبرياء ، والكمال . انتهى إلى الله ، وفى الله . استمرت ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته . غاب عن كل ماسوى الله تعالى . لم ير فى الوجود غيره . استكان لتصورات الآتى : يترقى فى مراتب الأسماء . يترجل فى معراجه . يصعد سماء بعد سماء . يتلفت إلى عجائب الله وآياته فى الكون المحيط . يهمس له الملائكة الملتفون حوله : لاتتلفت فتتعثر .. إن السفر طويل . تتفتح السماء واحدة بعد أخرى ، وترفع الحجب . يصل إلى السماء السابعة ، حيث الملكوت الإلهى ، ويواصل السير بلا انتهاء . يضاعف من الأوراد والذكر والأحزاب . يبين التألق فى سدرة المنتهى ، جنة المأوى والملاذ السرمدى . يخطو منها إلى حضرة العرش ، والرحمن الرحيم قد استوى ، ويمضى ـــ بخطوات الفرحة ـــ إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

فاجأه عجوز يستند إلى جدار أبو العباس ، لم يعرفه ، ولارآه من قبل ، وهو يغادر الباب المطل على ميدان المساجد :

ـــ فيما أرى ، فأنت تريد الجنة .. والصوفى الحقيقى يريد رب الجنة !..

تأمل العبارة لأيام . حيرته . لم يشر الشيخ يوسف بدوى إلى المعنى فيما قاله . هل يخلص فى عبادة ربه ، فلا يجد فى نهاية المسعى إلاّ السراب ؟!..

راعه أن خليفة الشاذلية حين ركب حصانه فى مولد أبو العباس ، لم يقبل على الشيخ يوسف بدوى ، وهو واقف وسط مريديه ، والجلوة تميل من الميدان إلى شارع البوصيرى ، ولاألقى عليه التحية . ضايقه أن الخليفة يتجاهل شيخه ، كأنه ليس من رجال الشاذلية .. فعلى من أخذ العهد؟!

مال إلى الوحدة ، واعتنس بالإنفراد . شغلته القراءة . عرف الطريق الواحدة ، طريق الألف . أقبلت نفحات الصبا الرحمانية ، الآتية من جهة شروق الروحانيات ، والدواعى الباعثة على الخير . إن لم يكن قد ملك ـــ فى هذه الحياة

الفانية ـــــ قليلاً ولاكثيراً ، فإن دولة الفقراء ذات السلطان الواسع النطاق ، الممدود الرحاب ، فى جنة الله يوم الدين . يخرج من قبره ، فتستقبله نوق بيض ، لها أجنحة . عليها رجال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها كمد البصر ، فينتهون إلى باب الجنة . يدخل عليه أهل الجنة مهنئين ، حاملين الهدايا والمواهب والخلع . يخبرونه أنه قد بدأ حياته الأبدية . يأتى المؤمنون رب الحق فى حلل خضر ، ووجوه مشرقة ، وأساور من ذهب ، مكللة بالدر والزمرد ، وعليهم أكاليل الذهب . تزول اللحى والشوارب ، وشعر الإبط ، وشعر العورة والبطن . ليس لهم شعر إلاّ فى الرأس والحاجبين وأهداب العينين . لايبولون ، ولايتغوطون ، ولايبصقون ، ولايمخطون . أمشاطهم الذهب ، ومجامرهم عود الجنة ، ورشحهم المسك ، وأخلاقهم على خلق رجل واحد . يعطى كل واحد منهم قوة مائة رجل فى الطعام والشراب والشهوة . يجد لذة شهوته قدر أربعين سنة . تتدفق الأنهار ، وتصطف الأشجار ، وتهب النسائم ، وتغرد الطيور ، وتضوع فى قصور الأبدية روائح المسك والكافور والزعفران . وثمة شجرة يخرج من ساقها عينان . يغتسل

المرء من العين الأولى ، فلا يشعث رأسه بعدها أبداً ، ولايتغير جلده ، ويشرب من العين الثانية ، فيتطهر جوفه ..

ـــــ أين أنت ؟..

نظرة الشيخ يوسف بدوى الثاقبة لاحظت انعزاله عن الجماعة ، وعن كلمات الشيخ نفسه . بدا منعزلاً فى مكان ، يعرف هو ـــــ وحده ـــــ ملامحه ..

إعتذر ، وإن لم يجب على السؤال ..

نقله حديث الشيخ إلى دنيا يحلم بها ، عوالم سحرية يراها ويحيا فى قلبها ، وإن تشوف إلى تفصيلاتها وملامحها . آفاق بلا نهاية من النورانية والروحانية والحقيقة المطلقة ..

سرح به الخيال فى معانى المفردات . الكلمة تنطلق فى آفاق اللانهاية . الرؤى والتكوينات والألوان والظلال ..

فاجأه الشيخ حماد ، المستند إلى جدار أبو العباس :

ـــــ لاعلم ولاعمل ، إلاّ بصدق التوجه إلى الله .. الإخلاص مطلوب !..

أضاف بلهجة مشفقة :

ـــــ لاتشغلك الجنة .. فنعيمها ـــــ كما قال شيوخنا ـــــ حجاب عن الله !

تذكر ماقاله أمين عزب : هل يصحو فيجد نفسه شديد القرب من نورانية المكاشفة ؟!..

كان القلب مغموراً بالمشاهدات : الحقائق ، والأوصاف ، والخواص ، والأحكام ، والكرامات ، والأسرار . ينادى المنادى : آن لك أن تصح ، فلا تسقم أبداً . وآن لك أن تحيا ، فلا تموت أبداً . يتحول ظاهره وباطنه إلى مسحة آدم ، وصورة يوسف ، وقلب أيوب . يتزوج خمسمائة حوراء ، وأربعة آلاف بكر ، وثمانية آلاف ثيب . يعانق كل واحدة منهن قدر عمر الدنيا . ينزل عن سرير الياقوت . يمشى فى رياض الزبرجد . يخرج إلى صحارى الزعفران . يمر على مروج العنبر وآكام القرنفل وميادين الصندل . لاحر ، ولابرد ، ولاشمس ، ولاقمر . الأطيار تغمس أجنحتها فى بحر المسك والكافور ، وتجوز فوق الرءوس بأجنحتها ، فيطيب المؤمنون عن آخرهم بريشة واحدة . يركب الرجال على خيل من ياقوتة حمراء . لكل فرس جناحان من فضة ، وجناحان من ذهب . خيل مسرجة لاتغوط ولاتبول . وعلى خيل بلق أجنحتها خضر . والنساء على نجائب أقتابها من ذهب . وبها البراق : رأسه من الذهب الأصفر ، وعيناه من

المرجان ، وجوانبه من الدر ، وذيله من اللؤلؤ ، وقوائمه من الكافور الأبيض ، وحوافره من اللجين ، وسرجه من الزمرد الأخضر ، وركابه من النور ، ولجامه من الحرير الأخضر ..

دهمته الرائحة الغريبة ، ألفها . الحيطان تآكلت . وبدا الطوب الأحمر من المصيص المتساقط ، والبيوت الواطئة ، القديمة ، تستند إلى كمرات الخشب ..

ثمة روح مهيب يملأ جوانبه ، وأطياف تتراءى من بعد . أشعة ضوء تخترق الظلمة المتكاثفة ، تعكس شفقاً شفيفاً ، يضئ المرئيات حوله ، ويضئ نفسه . ثم انعكست آثاره كلية فى نور الأنوار ..

هل وصل إلى الغاية القصوى ، وتمت له معرفة الله ؟ هل كشف عنه الحجاب ، وانفتح له علم الغيب ؟ وهل تفتح أبواب السماء بقدرة الله ، وتظهر طاقة القدر صافية البياض ؟..هل تنعكس على مرآة القلب دنيا لاتعرف الظلام ؟ يسعد بمشاهدة الله ، وتفيض عليه أنواره . يتلقى فيض التجليات على قلبه ، وتنزل أمطارالمدد على أرضه الظمأى . لايلتفت يمنة ولايسرة ، ولاإلى وراء . يدخل الجنة ، فيتمتع بمجامعة

الحور العين ، ويفاكه الأبكار ، ويتكئ على الأرائك ، ويسعى عليه الولدان المخلدون بأصناف الطعام ، وألوان الشراب ، وطرائف الثمار ، والحدائق الوارفة الظلال ، والخضرة ، والأريج ، وأفنان الريحان والياسمين والورد ، وأشجار البرتقال والرمان ، واللبن ، والعسل ، والخمر ، والموسيقا الحالمة ، والغناء الشجى ، والأطيار ، والحمائم ، والرحيق المختوم . يجلس تحت شجرة " التوبة " ، شجرة الجنة الوارفة ، تتوالد بما لايتصوره أحد . تمتد أغصانها عالياً ، ثم تعود إلى الأرض ، تتجذر فيها ، تصبح جذعاً جديداً . يتغطى المكان بظلال النباتات المتسلقة والورود والأزهار المثمرة . تتوقف فوق رءوس المؤمنين . لاشغل ولامرض . يعم السكون والطمأنينة والهدوء والسلام . ينمحى الخوف ، وينال المؤمن جزاء إيمانه . حتى لو بلغ مرتبة الولاية ، فسيظل يأخذ نفسه بالتستر والإخفاء . ينشغل ـــــ ولو ظاهرياً ـــــ بشئون الدنيا . يبيع ويشترى ، ويساوم ، ويعقد الصفقات . يحرص ألاّ يعرف الناس حقيقة أمره ، فهو واحد من التجار ، واحد من الصيادين ، واحد من المترددين على السلطان ، المريدين له ، الساعين فى طريقه

، المؤمنين بأقواله ، وبمعجزاته ومكاشفاته ، المتطلعين إلى فيض بركته ، إلى الشفاعة والنصفة والمدد . ربما سكت عن إجابة يعلمها ، ويعجز عنها إمام الجامع ، فى سؤال لأحد المصلين ..

ارتفعت القلوع ، وامتلأت الصوارى بالهواء البارد ، ومضى القارب إلى الشاطئ البعيد ، الغامض ، المحمل بالأسرار ..

لاحت الأسرار من أكنتها ، وظهرت الأنوار من سُبُحاتها ، وارتفعت الحجب عن القلب ، وظهرت المعنى الإلهية . تجلت فى مرآة الخيال ، فرأتها عين البصيرة . إنكشف لها مافى غيابات الموجود ..

مكاشفـــــة

انتهت صلاة المغرب ، وبدأت نصف الدائرة فى الالتفاف حول مجلس الإمام ..

حضر الجلسة ـــ بعد غيبة ـــ حمادة بك . لزم البيت ـــ لأسابيع ـــ منذ الليلة الكبيرة لمولد السلطان . زاره أطباء ، وعاده أصدقاؤه ومعارفه وجيرانه . لزم الآخرون بيوتهم ـــ لأيام ـــ حتى استردوا عافيتهم ..

ظل ماحدث محور أحاديثهم . تناولوه بالحزن ، ثم غلّفوه بالسخرية . ضمّنوه نكاتاً ومفارقات ، فى زياراتهم لحمادة بك ، وفى جلستهم أمام دكان الحاج محمد صبرة . ذكرهم عباس الخوالقة بأنهم نسوا ـــ عند الفرار بحياتهم ـــ زيارة مقصورة السلطان ، وطلب الإذن بمغادرة المولد ، والدعاء بأن يدعوهم إلى مولد العام القادم : عودة يارب ..!

قال حمادة بك :

ـــ نجوت من الموت مرتين فى الفترة الماضية ..

سرح بعينيه :

ـــــ فى المرة الأولى ، أنقذنى الصياد قاسم الغريانى من الغرق فى الميناء الغربية..

قاطعه الحاج قنديل :

ـــــ إنه أحد صبيانى .. وخادمك ..

قال حمادة بك :

ـــــ أما فى المرة الثانية ، فلست أدرى ـــــ حتى الآن ـــــ كيف نجوت ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ هذه بركات مولانا السلطان ..

أردف عباس الخوالقة :

ـــــ وبركات أولياء الله الصالحين .. سادة حينا !..

قال الحاج محمد صبرة :

ـــــ نصيحتى أن تأخذ تعويضاً من الحاج قنديل .. فهو الذى دفعك إلى ترشيح نفسك ..

قال عباس الخوالقة :

ـــــ لكن المعلم الزردونى هو الذى دفعه إلى حضور الليلة الختامية ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ فى رواية ، أنه عاد إلى وفديته القديمة .. فأراد إثناء حمادة بك عن الترشيح بوسيلة مبتكرة ..

اغتصب حمادة بك ضحكة :

ـــــ أصدق لو أنه لم يكن معى يوم الهول العظيم !..

قال المعلم الزردونى :

ـــــ الانتخابات قادمة .. وستشهدون تأثير مشاركة حمادة بك فى الليلة الكبيرة ..

رفع حمادة بك يديه ، كمن يتقى خطراً :

ـــــ توبة !..

اهتزت النظارة الطبية على منخار الحاج قنديل :

ـــــ ألن ترشح نفسك ؟..

قال حمادة بك :

ـــــ السياسة بحر .. لاأجيد العوم فيه ..

قال الحاج قنديل :

ـــــ أوجاعك هى التى تتكلم .. إنتظر حتى تبرأ ..

قال وهو يهز رأسه فى تلاحق :

ـــــ للسياسة رجالها !..

أطال الصلاة ـــــ لحضورهما متأخرين ـــــ الحاج قنديل وعبد الرحمن الصاوى . روى الإمام ـــــ حتى يأتيا ـــــ حلماً ، استيقظ فى نهايته ـــــ وربما قبل أن ينتهى ـــــ على أذان الفجر ..

لم يكد يلتقط منه طرف خيط البداية ، حتى فوجئ بالبداية نفسها فى أفواه الحاج قنديل وعباس الخوالقة وحمادة بك . تساءلوا : هل من المعقول أن يشاهدوا حلماً واحداً ـــــ وإن اختلفت تفصيلاته ـــــ فى لحظات متقاربة ، فلا يوقفهم إلاّ آذان الفجر ، يتصورون مارأوه حلماً وانقضى ..

تراوحت التفسيرات ، داخل الذات ، أو مع الآخرين .. لكن السؤال الذى بدا ملحاً ، بعد أن روى الإمام ماروى : هل كان ماجرى حلماً ، أو أنه شئ آخر ينتسب إلى معجزات سلطان الإسكندرية وحاميها ؟..

روى مريدوه الكثير من مواجيده وأحواله ومكاشفاته وكراماته . كان يأخذ علمه من ربه ، أى وقت يشاء ، بلا تحفيظ من كتاب ، ولادرس . يأخذ عن الكون ، ويمشى على الماء ، ويطير ، ويمسك النار ، ويحتجب عن الأبصار ، ويطوى الأرض ، وربما قطع المسافات البعيدة فى غمضة

عين . وكان يرى الكعبة من موضعه ، أينما كان ذلك الموضع ، حتى يتجه إليه فى صلاته ، ويتكلم عن مكة والمدينة وسائر أرض الحجاز ، كأنه نشأ فيها . ويشاهد ـــــ من داخله ـــــ العالم الملكوتى الروحانى ، والترابى ، يحيا مع الملائكة والملأ الأعلى والجن والخضر والأبدال ، ويتحدث إلى الراحلين عن دنيانا ، ويطّلع على الخواطر ، فيخاطب كل واحد من مريديه بشرح حاله . ويعرف الزائر له قبل قدومه على مسافة بعيدة . وكان يدخل عليه شخص لايعرف المريدون من هو ، فيحادثه لحظات ، ثم يخرج عنه ، لايتكلم عما جرى أمامهم ، ولايشير إليه . فإذا وقف المرء أمامه ، وظل صامتاً ، أخبره بما فى نفسه ، ونصحه فيما قدم للبوح به . وعرف عنه إعلامه بكوامن فى المستقبل . كان يتوجه إلى البحر ، يمشى على الماء ، ويراه الناس ، دون أن تبتل ثيابه ، كأنه يمشى فى الأرض تماماً ، لايشغله عما حوله شئ ، ولايتلفت . وكثيراً مارآه الناس يدخل بحر الأنفوشى بثيابه ، يظل ساعة طويلة ، ثم يخرج . معظم ماكانت رؤيته وهو فى هذه الحال ، عندما يكون القمر فى السماء بدراً . وكان يطير بلا جناحين ، ويغطس فى مياه

الميناء الشرقية ، فلا يظهر إلاّ فى المنتزة أو أبو قير . وربما طار إلى مكة ، يطوف حول البيت الحرام ، ويزور قبر الرسول ، ثم يعود إلى مجلسه ، كأنه لم يغادره . وأقسم مريدوه أنه كان يزور ـــ بجسده ـــ أضرحة أولياء الله : السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والشهيد الحسين وغيرهم ، دون أن يبرح مجلسه وسط المريدين . وكان لايغيب عن الله ، ولو فى حالة الجماع . من بين مأأحصاه : علوم الشريعة كلها ، وعلوم الحقيقة كلها ، وعلم لغات الإنس والملائكة والجن والطير والوحوش والهوام ، وعلم ضرب الرمل والتنجيم ورصد الإفلاك . وكان يتفرس فى لغات الحيوان ، يعرف ماتقوله وماتريده ، فيعيد حكايته على الناس . وكان يسخّر الجن ، وتطيعه . وكان يسمع تسابيح السمك فى البحر . وروى أنه ألقى على الأرض ـــ ذات يوم ـــ رءوس فجل ، تناثرت ، وتحولت إلى ثعابين وحيّات ، تفرقت وسط ذهول المريدين ، فلم يلحظ أحد أين ذهبت . وعرف عنه تبحّره فى علم السميا ، يسهل عليه به أن يتصرف على مابالكائنات من خير وشر ، وجلب وطرد ، أعماله فى الخير كالترياق ، وأعماله فى الشر كالسم الاقع .

وكان يأتى للحوامل والمرضى بالفاكهة ، فى غير أوانها . يتمتم بكلمات ، ويمد يده فى الهواء ، فتلتقط الثمار المرجوة ، يدفع بها إلى من يطلبها ، فيرضى بها رغبته . كان يعرف أشياء تخفى على البشر العاديين ، ويكاشف الناس بما فى صدورهم . حتى الأفعال التى يكتمونها ، ويحرصون على عدم البوح بها ، يرويها كأنه يراها . يكاشف كل واحد من مريديه بما حدث له فى يومه وليلته ، ويتصرف ـــ فى مجلسه ، وبين مريديه ـــ بإلهام يشبه الوحى ، يخاطب من لاتراه عيونهم ، يأخذ ويعطى ، يسأل ويجيب ، ثم يتجه إلى المريدين بالرأى الصواب . وعرف عنه المقدرة على الكشف عن حال الموتى ، وسماع كلامهم . وقد يستطيع ـــ بقدرة الله ـــ إحيائهم ..

لم ينقطع المدد بوفاة السلطان ، ولاانتهت كراماته ومكاشفاته . أمكن له ـــ داخل قبره ـــ أن يرعى مريديه وأتباعه وقصّاد مقامه . لاينام ـــ كل ليلة ـــ قبل أن يغادر قبره ، يسير ـــ بمفرده ـــ فى الأنفوشى ورأس التين ، والشوارع والحوارى والأزقة المحيطة ، يطّلع على

أحوال الناس ، ينصت إلى مايعانون ، فيلبى الخير مما طلبوا..

قال الإمـــــــــام :

التف المكان ـــ حول مقام سيدنا المرسى ـــ بغلالات رقيقة . تصاعدت رائحة نفاذة ، كأنها الأريج العبق . إنشق الضريح عن سيدنا ، بقامته المربوعة ، المهيبة ، ووجهه المضئ ، ولحيته الكثة ، وعينيه اللتين تشعّان طهراً وقداسة ..

بدا الخوف ـــ بتأثير المفاجأة ـــ على وجوه النساء القريبات . همت أكثر من واحدة بالفرار ، لكن النظرة الوادعة ، المسيطرة ، ألزمت الجميع بالبقاء فى أماكنهن ..

تجرأت المرأة أنسية ـــ لاأدرى متى ولاكيف تسللت إلى المقام ـــ فاقتربت . تتظاهر بالرغبة فى تقبيل قدميه ..

زجرتها ، لكن سيد المتواضعين أحنى قامته ، وساعد المرأة على النهوض ، وأحاط كتفيها بأصابع مترفقة :

ـــ من احتمى بمقامى لايقدر أحد أن يبعده عنه ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ــــ قال شيخنا أبو الحسن الشاذلى : إحرص أن تصبح وتمسى مفوضاً ، مستسلماً .. لعله ينظر إليك ..

استطرد فى صوت مترقق :

ــــ زادت هموم الناس ، فخرجت لأحمل منها ماستطعت ..

زالت الدهشة من نفوس المتحلقات بالمقام . أقبلن على السلطان ، يمسحن أدرانه ، يأخذن تراب قدميه ، يتشممنه ، يجرين به على وجوههن ..

قال حمادة بك :

ــــ هل كان السلطان بمفرده ؟..

هل عرف الإمام ماخشى أن ترويه أنسية لسيد الفران ؟.. وهل عرف بقية الجالسين ، فى الحلم القريب ، ماحرص على كتمانه بأعوام عمره ؟.. هل لأنه يرفض إقامتها فيه ، أو لأنها صحبته إليه فى ليلة الجنون ؟.. الليلة الختامية أبعدته ــــ دون قرار ــــ عن الوقوف أمام النازلين من ترام الرمل . مجرد الاحتكاكات العفوية تربكه . حتى الصلاة فى أبو العباس ، حرص أن يصلّى بجوار العمود الرخامى الهائل ، ويترك بينه وبين مجاوره مسافة ..

قال الإمام :

ــــ تبعه آخرون .. وقفوا بالقرب منه ..

استطرد كالمتذكر :

ــــ بدوا غرباء .. إكتفوا بمتابعة السلطان ، وإن ميزت من بينهم الصياد على الراكشى . وقال السلطان : جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة . وقال : رجال الليل الرجال ، وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشئ من الغنى واليقين ، فالغنى لكثرة ماعند الناس من الإفلاس ، واليقين لكثرة ماعند الناس من الشكوك . وقال : الصوفى منسوب لفعل الله تعالى به ، أى صافاه الله تعالى فصوّفنى ، فسمى صوفياً . وقال : الولى إذا أراد أغنى . والله مابينى وبين الرجل إلاّ أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته . وقال : والله لو حجب عنى رسول الله ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : لو فاتنى الوقوف بعرفة ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : والله لو حجبت عنى جنة الفردوس طرفة عين ، ماعددت نفسى من المسلمين . وقال : الدنيا كالنار ، وهى قائلة للمؤمن جرياً يامؤمن ، فقد أطفأ نور قناعتك لهبى . وقال : من أحب

الظهور ، فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفا ، فهو عبد الخفا . وقال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المنام . فقلت : ياأمير المؤمنين ، ماعلامة حب الدنيا ؟. قال : خوف المذمة ، وحب الثناء . فإذا كان علامة حبها خوف المذمة وحب الثناء ، فعلامة الزهد فيها وبغضها ، ألاّ يخاف المذمة ، ولايحب الثناء . وقال : مادخل بطنى حرام قط . وقال : الورع من ورّعه الله . وقال : الطمع ثلاثة أحرف ، كلها مجوفة ، فهو بطر كله ، فلذلك صاحبه لايشبع أبداً . وقال : العلم هو الذى يتطبع فى القلب ، كالبياض فى الأبيض ، والسواد فى الأسود . وقال : أوقات العبد أربعة لاخامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية . ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية ، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية . فمن كان وقته الطاعة ، فسبيله شهود المنة من الله عليه ، إذ هداه الله لها ، ووفقه للقيام بها . ومن كان وقته المعصية ، فسبيله الاستغفار والتوبة . ومن كان وقته النعمة ، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر ، والرضا رضا النفس عن الشهوات ، والصبر مشتق من الأصبار ، وهو الفرض للسهام . وكذلك الصابر ينصّب نفسه غرضاً

لسهام القضاء ، فإن ثبت لها ، فهو صابر ، والصبر ثبات القلب بين يدى الرب . وقال : العامة إذا خوّفوا خافوا ، وإذا رجوا رجوا ، والخاصة متى خوفوا رجوا ، ومتى رجوا خافوا . وقال : الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه : المؤمن لايعتزم عليها قبل فعلها ، ولايفرح بها وقت الفعل ، ولايصر عليها بعد الفعل ، والفاجر ليس كذلك . وقال : خلق الله الآدمى وقسمه ثلاثة أقسام : لسانه جزء ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وقال : الناس على ثلاثة أقسام : عبد هو بشهود مامنه إلى الله ، وعبد هو بشهود ما من الله إليه ، وعبد هو مامن الله إلى الله . وقال : الناس على ثلاثة أقسام ، قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم ، فهم فى الجنة قطعاً ، وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا يدخلون النار قطعاً ، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم ، فيخلدون فى النار قطعاً . وقال : صلاح العبد فى ثلاثة أشياء : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الدنيا ، فمن عرف الله خاف الدنيا ، ومن عرف النفس تواضع لعباد الله ، ومن عرف الدنيا زهد فيها . وقال : المؤمن لايرضى لنفسه بالخير إذا كان فيه ، لأن فوق الخير خيرات . أتراه يرضى بالشر ؟.

وقال : " يسّروا ولاتعسّروا " ، أى دلّوهم على الله ، ولاتدلوهم على غيره ، فإن من دلّك على الدنيا ، فقد غرّك ، ومن دلّك على الأعمال فقد أتعبك ، ومن دلّك على الله فقد نصحك . وقال : أنا لاأتشفى من أحد ، ولاأحمل أتباعى على التشفى من أحد . وقال : إذا علمت أنه لم يخرجك إلى مملكته إلاّ وقد كفاك ومنحك وأعطاك ، ولم يبق لك حاجة عند غيره ، فلا تطلب ممن هو بعيد عنك ، وتترك الطلب ممن هو أقرب إليك من حبل الوريد . وقال : السلامة فى الدين ، بترك الطمع فى المخلوقين . وقال : الدخول فى الجنة بالإيمان ، والخلود فيها بالنية . والدرجات فيها بالأعمال ، والدخول فى النار بالشرك ، والخلود فيها بالنية ، والدركات فيها بالأعمال .. ثم مسح السلطان على جبهته براحته ودعا : اللهم إنّا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا عنك ، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عندك . لاإله إلاّ أنت سبحانك . ربنا ظلمنا أنفسنا ، وقد تبنا إليك قولاً وعقداً ، فتب علينا جوداً وعطفاً ،

واستعملنا بعمل ترضاه ، وأصلح لنا فى ذرياتنا . إنّا تبنا إليك ، وإنّا من المسلمين ..

أشار بيده إلى جدار الجامع ، من ناحية ميدان الأئمة . إنفرج الحائط ، فمضى من خلاله إلى الميدان ..

قال الحاج قنديل :

فاجأنى فى جلستى المعتادة ، أمام دكان الحاج محمد صبرة . كنت قد اعتذرت ـــ قبلها ـــ عن عدم التوسط لدى نبيل افندى قرة ، ضابط نقطة الأنفوشى ، فيفرج عن على الراكشى . كان قد أسرف فى التطاول ، فأعفيته من عقابى ، واستدعيت له البوليس . اقتعد سيدنا الكرسى المجاور فى هدوء . شمّر عن ساعديه ، فظهر عليهما النور:

ـــ والعافين عن الناس ..

قلت :

ـــ من تقصد ياسيدنا ؟..

حدجنى المرسى بنظرة معاتبة :

ـــ على الراكشى .. لماذا لاتعفو عنه ؟..

ـــ لقد رمانى بالباطل ..

ـــــ ربما أنت المخطئ ..

ثم فى تساؤل غاضب :

ـــــ لماذا تحاربه فى رزقه ؟!..

ومضى ..

قاطعه الإمام :

ـــــ هل رويت كل ماجرى ؟

قال الحاج قنديل :

ـــــ علا صوت السلطان ، فسمعه العابرون :

ـــــ لم يعد للبلطجة موضع ـــــ منذ الآن ـــــ فى بحرى ..

وفى صوت تخالطه نبرة اعتذار :

ـــــ كل إساءة أدب تثمر أدباً ، فليست إساءة أدب ..

تطلع الحاج قنديل إلى الأمام ـــــ من وراء النظارة الطبية ـــــ بعينين خائفتين :

ـــــ هل يعاقبنى السلطان ؟..

قال الإمام :

ـــــ عامل الراكشى بالحسنى ، فينتهى كل شئ !..

قال الحاج قنديل :

ـــــ أرضيته يامولانا .. وأرضيت كل الصيادين والسماكين ..

ثم بنبرة مستعطفة :

ـــــ يبقى رضاء سيدنا السلطان !..

قال حمادة بك :

بدا السلطان كأنه ينتظرنى على ناصية شارع سيدى داوود ، والتقائه بالمسافرخانة . كان الوقت ليلا ، والبرد القارس أغلق الأبواب والنوافذ . وخلت الطريق من المارة . خمنت أنه المرسى من قبل أن يحدثنى . نزلت الرهبة فى نفسى ، فلم أقو على الحركة ولاالكلام ..

قال المرسى وهويشير إلى البيت المهجور أوسط شارع سيدى داوود :

ـــــ المرأة أنسية أولى بأن تسكن هذا البيت ..

سأل الحاج قنديل :

ـــــ أى بيت ؟..

قال الإمام :

ـــــ لماذا لاتتركها فى البيت ؟..

لم يطرد أنسية . سرق حاجياتها لتبعد . خشى ـــــ إذا واجهها بالطرد ـــــ أن تفضح سره ..

هتف حمادة بك :

ـــــ إنها أنسية يامولانا !..

قال الإمام :

ـــــ لقد رأيت الحلم بنفسى . وعرفت عن البيت مالم تذكره من حلمك ..

ثم بتسليم :

ـــــ نفذ مايقضى به مولانا السلطان !..

قال عباس الخوالقة :

تابعته عن بعد . كنت واحداً من العشرات الذين لازمت خطواتهم خطواته . طاف ـــــ فى البداية ـــــ بأرجاء الجامع . تأمل التجاويف والمحارات والمقرنصات الصغيرة والصنج المعتقة والزخارف النباتية والعقد المخفف والقباب الصغيرة فى الأركان الأربعة . إتجه إلى الباب الرئيسى ، وهبط الدرجات . دخل جامع البوصيرى من بابه الخلفى .

تأمل البردة المحيطة بأعلى الجدران ، والإزارات الزرقاء فى حوائط الصحن . أبطأت خطواته لما اقترب من الضريح ، وقال كالمتوسل :

ــــ والله مارأيت العز إلاّ فى رفع الهمة عن الخلق ..

إخترق الحائط المجاور للضريح . الأنوار تملأ بدنه ، وتنبعث من وجوده . هبط فى ميدان المساجد . مضى ناحية الأئمة الإثنى عشر . قرأ الفاتحة على أرواح أولياء الله . فرّق بيده من الهواء المحيط ، يضعه فى جيب عباءته ..

طاف بنظرته فى المكان . أحاطت بالناس والبيوت والأشياء ، تكاد تنفذ داخل الجدران ، وماوراء النوافذ والشرفات . تصل إلى الشوارع والأزقة البعيدة . فى نهاية السيالة ، أول الحوارى الضيقة ، الملتوية ، المفضية إلى حلقة السمك ، ارتفع السلطان فى الهواء ، حتى اختفى ..

***

غادر الرجال الجامع ــــ فى هدأة الليل ــــ بعد أن استكانوا إلى رأى الإمام ، بأن ماجرى كان حلماً ، توزع فى الليلة ذاتها ــــ بكرامات ولاية المرسى ــــ على الفضلاء من أبناء الحى . يجمعهم هدى الله فى درس المغرب ،

وجلسات المحبة أمام دكان الحاج محمد صبرة . يزيدهم ـــ بإرشاده ـــ إيماناً وتقوى ..

لكن السؤال ـــ بما فاجأتهم به الأيام التالية ـــ عاود إلحاحه : هل كان ماجرى حلماً ، أو أنه شئ آخر ، ينتسب إلى معجزات سيدنا السلطان ؟!..

" محمد جبريـــل "

تم الجـــزء الأول
يليـــه :
ياقوت العـــــرش
البوصيـــــــــرى
علـــى تمـــــراز